لجنة البيان العربي

أبو العتاهية

تأليف

محمد أحمد برانق

عضو هيئة الاتصال الفنية بمكتب وزير المعارف

[حقوق الطبع للمؤلف]

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٤ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)
١٩٤٧

Sp.
892
40
١

لجنة البيان العربي

أبو العتاهية

تأليف

محمد أحمد برانق
عضو هيئة الاتصال الفنية بمكتب وزير المعارف

[حقوق الطبع للمؤلف]

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)
١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه فصول بحثت فيها أبا العتاهية ، وجعلت كل بحث منها وحدةً ، يستغنى عن غيره ، ولا يغنى عنه غيره ، لذلك تجد حينما تقرؤها تداخلا ، يخيل إليك أنه تكرار ، وليس بتكرار ؛ وإنما هو استكمال للوحدة . ولهذا تجدنا فصّلنا فى مكان ما أدمجنا فى مكان آخر ، وأوجزنا فى موضع ما أطنبنا فيه فى موضع آخر ، ولكلٍّ وضعه ومقامه ومقتضاه .

ولم نحفل فى هذا البحث بما جرت عادة الناس أن يحفلوا به من أن الشاعر أو الكاتب الذى يترجمونه وُلد سنة كذا ، وتزوج سنة كذا ، ومات سنة كذا ، إلا بالقدر الذى يحتاج إليه البحث ، أو يساعدنا على تصوير ناحية خاصة من النواحى التى نحاول تصويرها . أما أن نسرد هذه الأمور وما يتصل بها سرداً كما يفعل بعض الناس ، من غير أن يكون لذكرها غاية ، أو من غير أن يكون لذكرها سبب له مسبَّب ، أو من غير أن تكون مقدمة لها نتيجة ، فهذا لم نقصد إليه .

ويرجع ميلى إلى البحث فى حياة هذا الشاعر وتحليلها ونقدها إلى سنوات خلت ؛ فقد كتبت عنه فصلين من نحو عشر سنين ، نشرتهما على الناس ، ثم صرفتنى عنه الشواغل المختلفة ، حتى أتيحت لى فى الأشهر القليلة الماضية فرصة جعلتنى أعود إليه وإلى غيره مما كنت قد بدأته ، فأتممت أبا العتاهية على النحو الذى ترونه ، وأبقيت الفصلين القديمين كما هما من غير تغيير ولا تبديل ، ولا تقديم

ولا تأخير ، ولا محو ولا إثبات ، مع أنى لو كتبتهما اليوم من جديد لكان لى فى كتابتهما نحو غير هذا ، ولعل هـذا النحو كان يجعلنى أحكم على أبى العتاهية حكما غير الذى حكمت عليه فيهما . وهذان الفصلان هما : عقيدته وبخله .

وقد يجد القارىء تعليلا يرى هو غيره ، وقد يجد نتيجة كان يرى أن البحث لو اتجه اتجاهاً آخر لوصل به إلى نتيجة أخرى ، فلا يرعه ذلك ولا يحزنه ، فإن البحث الأدبى مرجعه غالباً إلى التقدير الشخصى ، و إلى الذوق ، وكلاهما يختلف اختلاف الأشخاص والثقافات والنزعات . ولا يمنع ذلك من أن هناك قضايا عامة قلما يختلف فيها الباحثون .

والمسائل التى تناولتها بالبحث ، وصورت بها حياة أبى العتاهية من النواحى المختلفة ، هى :

١ — عقيدته

٢ — زهده

٣ — بخله

٤ — غزله

٥ — صلته بالخلفاء :

ا — المهدى والهادى

ب — الرشيد

ج — المأمون

٦ — شعره

محمد أحمد برانق

القاهرة فى : ذى الحجة سنة ١٣٦٦ / أكتوبر سنة ١٩٤٧

عقيدته

قبل أن نتحدث عن عقيدة أبي العتاهية ، ونحاول تصويرها — يجب أن نتحدث عن منزلته الاجتماعية والنسَبية ، وفي أي عصر عاش ، وإلى أي حد شغلت المسائل الدينية عقول المفكرين في عصره ، ومدى التأثير الذي وصلت إليه ؛ فإن العصر الذي يعيش فيه الإنسان والظروف المحيطة به ، وما يشملها من أخذ ورد ، وما تتفرع عنه الآراء المختلفة ، وما يتبين من مناقشتها — كل ذلك يؤثر فيه تأثيراً قليلا أو كثيراً ، يرجع إلى مقدار ارتباطه بتلك الظروف ، وقدرته على فهمها ، وتكييف مسائلها .

وأبو العتاهية هذا كان من غمار الناس ؛ فإنه مولى عنزيّ من جهة أبيه[1] ، وزهري من جهة أمه ، وكان أبوه حجاما ، ثم كان هو وإخوته يصنعون الجرار الخضر ، ولذلك لم يستطع أن يصاول بنسبه ، ويفاخر بأبيه وجده ؛ وقد جاذبه يوماً رجل من كنانة في شيء ،

---

(١) ولا يدفع هذا ما ذكر من أن ابنه محمداً يزعم أنهم من عنزة بالنسب لا بالولاء .

ففخر عليه الكنانى ، واستطال . يقوم من أهله ، فقال أبو العتاهية :

دعنىَ من ذكر أب وجَد ... ونسب يعليك سور المجد
ماالفخر إلا فى التقى والزهد ... وطاعةٍ تعطى جِنان الخلد
لابد من ورْد لأهل الورد ... إما إلى ضَحْل وإما عِدِّ (١)

عاش أبو العتاهية فى عصر كانت العقول فيه قد بدأت تتجه فى أمور الدين اتجاهاً جديداً ، ولم ترض النفس بالتسليم بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية من غير أن يحكموا العقل فى أكثر الأمور ، ويناقشوا كل ما يعرض لهم من مسائل تتعلق بالتوحيد والصفات والوعد والوعيد وغير ذلك. اضطرهم إلى هذا المتزندقون، وأعداء الإسلام ومحاربوه من أهل الديانات الأخرى ، حيث أثاروا شكوكا كثيرة حول بعض المعتقدات الإسلامية ، وناقشوها مناقشات خاضعة لقوانين المنطق والفلسفة ، فاضطر المسلمون إلى تعلم هذه العلوم ، ومناقشة هؤلاء مناقشة علمية أساسها المعقول لا المنقول . وساعدهم على ذلك كثرة من دخلوا فى الدين من علماء الأعاجم ، وترجمة الكتب الرومانية واليونانية والهندية والفارسية والسريانية ، ولا سيما ما كان منها خاصاً بمسائل الإلهيات والفلسفة والمنطق .

---

(١) الضحل : الماء القليل الذى لا عمق له . والعد : الماء الجارى الذى له معين لا ينقطع ، كماء العين .

كان النضج العقلى لأبى العتاهية فى النصف الثانى من القرن الثانى، فإنه ولد - على الراجح - سنة ١٣٠ هـ، و بقى حياً إلى أن مات سنة ٢١٠ أو بعدها بقليل، وأياً كانت سنة وفاته فهو عاصر فى رجولته المهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون، وكانت له مع كل منهم أخبار وحوادث.

ونشأ أبو العتاهية بالكوفة، وأقام فى بغداد حاضرة العباسيين، ومنبع النور والعرفان إذ ذاك، ومحط رحال العلماء والشعراء والمترجمين وكعبة القاصدين من أطراف البلاد الإسلامية لأخذ البِدَر التى كان ينفحها الخلفاء للشاعر إذا رضوا عن قصيدهِ، والمجادل إذا انتصر فى حجاجه، والعالم إذا أنار رأيه مسألة أظلمت برأى غيره، وهكذا.

كان أبو العتاهية فى صغره حسن الهيئة، جَعْدَ الوفرة، أفحم الشعر، أبيض اللون، نحيل الجسم، ممشوقا، وكان لبقا فصيحا، زكنا ذهنا، وكل هذه من خلق الله، أما الصفات الجسمية فليس لأحد أن يشك فيها، و يكادون يتفقون على أنه كان وسيما، وأما الصفات النفسية؛ وهى اللباقة والفصاحة والزكن — فهى صفات قد تكسب الشخص شيئا منها بالمرانة، وكثرة الاتصال، ولكن أبا العتاهية فى أول أمره كان لا يختلط إلا بمن هم على شاكلته، من الخزافين وصانعى الجرار وتجارها. وهؤلاء لا يكتسب أحد منهم

لباقة ولا حصافة ولا زكنا ، وإنما كان يقصده زمن شبابه المتأدبون من الأحداث ، فينشدهم ما عسى أن يفتح الله به عليه من الشعر ، فيأخذون قطع الخزف ، ويكتبون فيها ما ينشدهم ، فهذه الصفات النفسية كانت فيه بالطبع ، فهى موروثة أو موهوبة ، وليست مكتسبة ولا مصطنعة ، وأما أثر هـذه الصفات فى تفكيره واعتقاده — فمن المعقول أنه لم يظهر فى أيام صباه ، فقد كان له فى مزاولة الخزافة وبيع الجرار بالكوفة ليكسب من ورائها رزقه — ما يشغله عن التفكير فى أمر عقيدته ، وفيما عسى أن يختار لنفسه من المذاهب التى كثر حولها الجدل فى ذلك الزمان . ولعل أول ما عرفه الأحداث أنه اجتاز فى أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به فى الكوفة ويبيع منه ، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه ، فسلم ، ووضع القفص عن ظهره ، ثم قال : يا فتيان ، أراكم تذكرون الشعر ، أفأقول شيئاً منه تجيزونه ؟ فإن فعلتم فلكم عشرة دراهم ، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم ، فهزئوا منه ، وسخروا به ، وقالوا : نعم ، قال : لابد أن يشترى بأحد القمارين رطب يؤكل ، فإنه قمار حاصل ، وجعل رهنه تحت يد أحدهم ، ففعلوا مثله ، فقال أجيزوا :

ســاكنى الأجـداث أنــتم . . . . . .

وجعل بينه وبينهم وقتا فى ذلك الموضع ، إذا بلغتـه الشمس

فمضى الوقت ولم يجيزوا البيت، فغرموا الخطر، وجعل يهزأ بهم، وأتمّه :

. . . . مثلنا بالأمس كنتم

ليت شعري ما صنعتم أربحتم أم خسرتم؟(١)

وإن ما كان يقرضه من الشعر في الكوفة أول أمره ليس إلا شيئاً يتلهى به، ويسري عن نفسه بعض ما يلاقيه من العنت والإرهاق من مزاولة تلك الصنعة الحقيرة طول يومه، وكان يسره أن يهتم بشعره الأحداث والشداة فيجتمعون حوله، ويسمعون إنشاده، ويطربون له، فيستهويه طربهم منه، وإعجابهم به، فيزيد في قرض الشعر، وإنشاد الأحداث والشداة على هذا الوجه. ولعلك سائل نفسك في هذا الموضع : ما هو الشعر الذي كان يقرضه أبو العتاهية حينذاك فيسر لسماعه الأحداث ؟ إنني لم أعثر على شيء من شعره في ديوانه أو غير ديوانه من المظان التي بين يدي، والتي فيها شعر لأبي العتاهية قد روي على أنه قرضه في الكوفة، وأنه كان ينشده في حلقة الصبيان فيعجبون ويطربون، ومع ذلك فهل يكون هذا الشعر في شيء غير الغزل الرقيق ؟ أو يكون إلا في وصف شيء من الأشياء التي يحبها الشباب يجري في عروقهم الدم الحار، ويمتلىء جسمهم فتوة، يحبون المرح، ويميلون إلى اللهو ؟ إن شعره يغلب أن يكون في هذا

(١) صاحب شذرات الذهب يروي هذه القصة برواية أخرى، ج٢ ص٢٥

النوع ، ولو لم يكن فيه وحده لبرم به الشبان ، وسئموا إنشاده ، ولم يعاودوه . ثم ماذا كان يغريهم بلقاء جرار وابن حجام ، مثل أبي العتاهية النزيل بهم ، فهو وضيع من وضيع[1] وهو غريب عنهم فلولا أنه عرف كيف يستهويهم ، ويجمعهم حوله بالضرب على الوتر الذي كانوا يحبونه — ما حفلوا به .

ومن يدري ؟ لعله كان في ذلك رواج لبضاعته التي كان لا يزال إلى اليوم يكسب منها عيشه الذي يقوت به نفسه وأخاه .

ومما ضاع من شعره الذي كان يقرضه هناك أيضا ، ما كان يقرضه في بني معن بن زائدة ، إذ كانت بينه وبينهم خصومة ومنه ماذكر من أن عبد الله بن معن تهدده وخوفه ، فقال يهجوه : —

يا صاحبيَّ رحليَ لا تكثرا	في شتم عبد الله من عذلي
سبحان من خصَّ ابن معن بما	أرى به من قلة العقل
قال ابن معن وجلا نفسه :	على مَنِ الجِلْوة يا أهلي ؟
أنا فتاة الحيِّ من وائلٍ	في الشرف الشامخ والنُّبل
ما في بني شيبان أهل الحجا	جاريةٌ واحدة مثلي

استمر على هذا النحو من الهجاء حتى أقذع وأفحش ، فانتقم منه عبدالله بمثل ما هجاه به ومن واديه[2] .

---

(١) التاج ص ٢٤ ، ص ٥٠

(٢) الأغاني ج ٤ ، الديوان ص ٣٢٤

ثم كان بينه و بين بنى معن هؤلاء ما وقعت بسببه خصومة طويلة فإنه كان كلما مضوا فى مغاضبته أمعن هو فى هجوهم ، والنيل منهم ، والتعنه عليهم ، واتصل هجاؤه لهم حتى قال فى عبد الله — وكان قد تهدده وتوعده بالشر إن هو شبب بجاريته سعدى :—

ألا قل لابن معن ذا الذى فى الود قد حالا
لقد بُلِّغْتُ ما قال فما باليت ما قالا
ولو كان من الأسد لما صال ولا جالا
فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا !
ولو مد إلى أذنيه كفيه لما نالا
قصير الطول والطيلة لا شب ولا طالا(١)
أرى قومك أبطالا وقد أصبحت بطالا

قال عبد الله : ما لبست سيفى قط فرأيت إنسانا يلمحنى إلا ظننت أنه يحفظ قول أبى العتاهية فى ، فلذلك يتأملنى ، فأخجل . يريد بذلك قوله :—

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا .
وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا

---

(١) الطيلة : العمر

من ذلك تعلم أن شعره فى أول أمره كان كشعر غيره من الشعراء فى أول أمرهم ، ولما شدا وترعرع وجد الشعر منبع رزق لا يغيض معينه ، فمدح وهجا ، وخاصم وعاند ، وخشيه الأشراف فصالحوه ، إلا أن هذا النوع من شعره عامة ، وما قرضه منه فى الكوفة خاصة ، لم يصل إلينا منه إلا نزر يسير لا يكاد يصور لنا طرفاً من حياته الأولى صورة واضحة ، ولكن الذى نجزم به أنه ما كان يلبس وهو فى الكوفة أبراد الزاهدين ، وما كان إلا شاعراً شابا ، شأنه شأن الشبان لا يجرى على ألسنتهم ذكر الموت والقبر والنشر والحشر والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار إلا بقدر، وهمهم من الحياة غالبا عيشة راضية ، يغلب عليها المرح والسرور ؛ وساعد أبا العتاهية على ذلك طبع فيه ، أما التنسك فإنه يغلب ألا يكون فى غير الشطر الثانى من العمر ، إلا إذا أحاط بالإنسان ظروف وملابسات خاصة تجعله يجرى على غير الغالب والمألوف . وكان فى أبى العتاهية انخناث وتكسر ، وحمل زاملة المخنثين فى الكوفة زمن شبابه ، وهذا مضافاً إلى أدبه جعل مصنع الجرافة حلقة أدب ، وقد ظل فى حاله من التخنث ، وحمل زاملة المخنثين ، حتى استبانت سنه ، فعوتب فى ذلك وأنكر بعض الناس عليه ، وقال له : أريد أن أتعلم كيادهم ، وأحفظ كلامهم وقد أغراه جنون شبابه أن يحب امرأة نائحة من أهل الكوفة بها

حسن ، وفيها جمال ، ولها دلال ، وشبب بها ، ثم لم يلبث أن فاتها وبرم بها . واتهمها بالفساد ، وقال فى ذلك شعراً (١)

* * *

عرف أبو العتاهية وذاع صيته فى الشعر ،وخشيه أشراف الكوفة وقربه كثير ، ونافحوا عنه ، حتى إن عبد الله بن معن أراد يوما عقابه على هجو قاله فيه ، فضربه مئة سوط ليس بالمبرح تغيظا عليه ، وإنما لم يغلظ فى ضربه تقية منه ، وخوفا من كثرة من يعنى به ، ولما ساء بنى معن هجاؤه مضوا إلى مندل وحيان العنزيين ، وهما من بنى عمرو ابن عامر بطن من يقدم بن عنزة ، وكان من سادات أهل مكة — فقالوا لهما : نحن أهل بيت واحد ، ولا فرق بيننا ، وقد أتانا من مولاكم هذا ما لو أتانا من بعيد الولاء لوجب أن تردعاه . فأحضرا أبا العتاهية ، ولم يكن يمكنه الخلاف عليهما ، فأصلحا بينه وبين عبد الله ويزيد ابنى معن ، وضمنا عنه خلوص النية ، وعنهما ألا يتبعانه بسوء ، وكانا ممن لا يمكن خلافهما ، فرجعت الحال إلى المودة والصفاء ، فجعل الناس يعذلون أبا العتاهية على ما فرط منه ، ولامه آخرون فى صلحه لهما — فقال :—

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ٢٤

مالعـــــذالى ومالى ! أمرونى بالضـلال
عذلونى فى اغتفارى لابن معن واحتمالى
إن يكن ما كان منى فبجـرمى وفعـالى
أنا منه كنت أسوا عِشرة فى كل حال
قل لمن يعجب من حسـ ن رجوعى ومقالى
رب ودٍّ بعد صد وهوى بعد تقَـال
قد رأينـا ذا كثيراً جاريًا بين الرجال
إنمـا كانت يمينى لطمت منى شمـالى

***

رحل أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد ؛ لأنه عندما بدأ ينبه ذكره ويشتهر بالشعر ، ملأه الزهو ، وضاقت به الكوفة ، فرأى أن يبحث عن مرتع خصيب مريع ، يتقلب فى نعيمـه ، ويعرف له صاحبه مقامه ، فاتجه إلى بغـداد مع صاحبه ورفيق صباه ، إبراهيم الموصلى المغنى ، ولم يكد يقيم فيها بعض الوقت حتى عرف أنه مازال فجًا لم ينضج بعد ، وأدرك أن العيش فيها بين الشعراء عسير عليه « فاضطر إلى الاعتكاف بالحيرة المتواضعة فترة من الزمن ، واشتهر هناك بالشعر ، حتى وصلت شهرته إلى مسامع الخليفة المهدى فاستدعاه ثانية إلى بغداد » (١) .

١ — دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الأول ، العدد السادس .

هاجر أبو العتاهية ، إذن ، من الكوفة إلى بغداد للمرة الثانية في زمن المهدي بدعوة منه ، وكان مخنثاً لا يزال على حاله في الكوفة يحب النساء ، ويشبب بهن ، ويتعرض لهن ، وله مع عتبة جارية المهدي حديث طويل وكان لا يتورع عن أن يشبب بها في حضرة الخليفة وفي مجلسه ، حتى إنه عندما قال :

ألا ما لسيدتي مالها ؟ ... أدلا فأحمل إدلالها ؟
وإلا ففيم تجنت وما ... جنيت ! سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للإما ... م قد سكن الحسن سربالها
مشت بين حور قصار الخطا ... تجاذب في المشي أكفالها
وقد أتعب الله نفسي بها ... وأتعب باللوم عذالها

مال بشار إلى أشجع السلمي تلميذه وقال : ويحك يا أخا سليم ! لا أدري من أي أمريه أعجب : أمن ضعف شعره ، أم تشبيبه بجارية الخليفة ، يسمع ذلك بأذنه ! وسنفصل حديثه مع عتبة ، حينما نتكلم عن غزله فيما بعد .

ونحن وإن كنا لم نعرف بالضبط السنة التي هجر فيها الكوفة ونزح إلى بغداد — فإنها كانت على أي حال زمن المهدي ، حيث اتصل به ولازمه ، ولطف محله عنده ؛ فكان يجالسه ويسايره ، ويسمر عنده ، ويخرج معه للصيد ، ويتشفع فيمن يغضب منهم المهدي ،

ويتغيظ عليهم ، فيقبل شفاعته ، ويعفو ، بعد أن يأمر بالجر على الوجوه ، والإلقاء في السجون ؛ ثم هو يجلس معه وقد ماتت ابنته فحزن عليها ، وامتنع عن الطعام والشراب ، فيعزيه ، فيقبل عزاءه ويقول له : أحسنت ، ويحك ! وأصبت ما في نفسي ، ووعظت وأوجزت ؛ ثم أمر له لكل بيت بألف درهم ، وكان يتصل بهرون بن المهدى ، ولا يتصل بالهادى ، فلما تولى الهادى الخلافة تنكر له ، ولم يحظ عنده ؛ ولكن أبا العتاهية — وهو الشاعر اللبق الحصيف المطبوع — لم يعز عليه أن يترضى الهادى ، وأن يستل سخيمته بشيء هين عليه ، رخيص عنده ، لا يكلفه ما يكلف غيره من العنت وكد الذهن وكدح الخاطر ؛ ذلك هو أبيات من الشعر ، تجعله راضياً عنه بعد أن كان واجداً عليه ، وقد كان كذلك ، فإنه غسل وجده بأبيات مدحه بها ، ثم نال جائزته بقصيدة أنشدها بين يدى الخلافة ، ويظهر أنه كان لا يحب الهادى لأنك لو رجعت إلى تلك الأبيات التي مدحه بها ، وإلى القصيدة التي أنشدها بين يديه — لم يستهوك شعرها ، ولم تطرب له ، بل لا تكاد تصدق أنها من شعر أبي العتاهية ، ولكن قريحته لم تبق جامدة إذا أراد أن يقرض في الهادى شعراً ، فإنه راضها وحملها على القول — فلانت وسلست ، فمدحه ، وهنأه ، وصحبه ، وحظى عنده ، حتى إنه عند ما مات الهادى ، وطلب

إليه الرشيد أن يقول شعراً امتنع فحبسه ، و بقى فى الحبس مدة[1] .

* * *

و إلى الوقت الذى اتصل فيه أبو العتاهية بالرشيد لم يبن لنا أنه صاحب مذهب دينى خاص ، ولم نعرف أنه لبس مسوح الزاهدين ، ولكنه شاعر يتكسب بشعره ، فتروج سوقه ، و يربح مالا كثيراً يكتنزه ، و يحرص عليه حرص الجبان على روحه . بدأ بعد ذلك ينحو نحواً جديداً فى شعره ، وحديثه لجلسائه ، ونظام حياته ؛ بدأ يذكر الله والموت ، و يذم الدنيا ، و يبغضها إلى الناس ، و يعجب من كلفهم بها وتكالبهم على نعيمها ، و يصفهم بالغفلة والغرور ، و ينسب كل شىء إلى الله . واعتنق مذهب الجبرية الذين ينفون العقل حقيقة عن العبد و يضيفونه إلى الرب[2] وكان هـذا المذهب قد ظهر أواخر أيام بنى أمية ، واعتنقه بعض الناس .

والذى يبدو لنـا أن أخلاق أبى العتاهية لم تخرج عن أخلاق كثير من الشعراء فى زمانه وفى غير زمانه ؛ فهم — فيما أعتقد — قوم لا يثبتون على مبدأ ، ولا يقيمون على شىء واحد ، فحبهم و بغضهم ، وولاؤهم ، وعدم ولائهم لا يستقر و إنما يلبسون لكل حالة لبوسها

(١) وسنتحدث عن ذلك حديثاً مفصلا فى موضعه من الكتاب

(٢) الملل والنحل ج ٢

ويسيرون فى ركاب من يظنون أن الخير لابد آتيهم منه ، ومن يرون أن الدنيا أقبلت عليه ، فإذا ولّت عنه الدنيا ولّوا عنه على أثرها ، ولا يتذممون ولا يتلومون .

وأبو العتاهية واحد من هؤلاء الشعراء ، طينته من طينتهم ، وخلقه من خلقهم ، فهو لم يثبت فى نسبه ، ولا فى خلقه ، ولا فى مذهبه ، وساعده على ذلك طبع فيه ، فإنه كان يحب الشهرة والمجون والتمتع ، أما فى نسبه فإنه ادعى أنه عنزى بالنسب تارة ، وبالولاء تارة أخرى ، وما زال بالعنزيين حتى التصق بهم ، واستعداهم يوماً على جزار عيّره بأنه نبطى ، بأن ذهب إلى رجلين منهم ، وقال لهم : إن فلاناً الجزار قتلنى وضربنى ، وزعم أنى نبطى ، فإن كنت نبطياً هربت على وجهى ، وإلا فقوما فخذا لى حقى . فقام معه مندل بن على وما تعلق نعله ، وقال له : والله لو كان حقك على عيسى بن موسى [1] لأخذته لك منه ، ومر معه حافياً حتى أخذ له بحقه .

هذا الذى آلمه أن ينسب إلى أهل النبط ، والذى استعدى العنزيين على من نفى نسبه عنهم ، والذى التصق بالعنزيين ، فأدالوا

---

(١) ابن المنصور ، وولى العهد من بعد المهدى ، ولكن المهدى خلعه وولى العهد ابنه الهادى ، فى قصة طويلة يذكرها الطبرى وغيره من المؤرخين .

له من صاحبه ، والذى كان للعنزيين عنده المقام الأول ، وكان لا يمكنه الخلاف على مندل بن على وأخيه حيان العنزيين ، وقد كانا من أشراف الكوفة — هذا الرجل عاوده الخلق الغالب على الشعراء حينما غادر الكوفة إلى بغداد ، وحيث ترك عنزة والعنزيين ، وأصبح لا يرجو نفعهم ، ولا يخشى بأسهم ، فخلع نسبه إليهم ، وتبرأ منهم ، ولبس فى نسبه ثوباً جديداً ، ذلك هو ثوب اليمانية ، لأنه قدم على بغداد غريباً ، وأراد أن يتقرب من الخليفة ، ولكنه لا يستطيع أن يدعى أنه من نسبه لأبيه ، فاتصل بخال الخليفة المهدى ، وهو يزيد ابن منصور ، لأنه عرف أنه لطيف المحل عند ابن أخته ، فهو يقدمه إليه ، ويقربه منه ، ويشفع له إذا احتاج إلى شفاعة ، ويزكيه عند توزيع العطايا على الشعراء ، ولم يكتف بالاتصال بيزيد بن منصور ، فإنه ألحق به نفسه ، وألصق به نسبه ، وادعى أنه مولى من موالى اليمنيين ، وانتفى من عنزة ، وتبرأ منهم ، ومدح اليمانية ، ومن ذلك قوله :

سُقيتَ الغيث ياقصرَ السلام ... فنعم محـلة الملك الهمام
لقد نشر الإله عليك نورا ... وحفَّك بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهدى حتى ... تدور علىّ دائرة الحِمام
له بيتان : بيت تبَّعى ... وبيت حل بالبلد الحرام

وكان يزيد هذا من أكرم الناس ، وأحفظهم لحرمة ، وأرعاهم

لعهد ، وكان باراً بأبى العتاهية ، كثيراً فضله عليه ، وكان أبو العتاهية منه فى منعة وحصن حصين ، مع كثرة مايدفعه له ، و يحمله من المكاره . ومع أنه أحس فقده فى ماله وفى نسبه ، ووجده فى شعره وفى نثره ، كما قال هو عندما رثاه ، وفى أنه ساء من أجله منظره ومخبره — فإنه لم يقم على ولائه له ، ولم يبق يمانياً ينسب لليمانيين و يفخر بهم كما كان يفعل من قبل ، فقيل له فى ذلك ، فقـال : ذلك شىء احتجنا إليه فى ذلك الزمن ، وما فى واحد ممن انتميت إليهم خير ، ولـكن الحق أحق أن يتبع . وكان ادعى ولاءه للخميين .

من ذلك تعلم أنه كان ينتسب إلى من يجد الخير فيهم ، و يتلمس المنفعة من ورائهم ، فإذا قضى منهم غايته ، وانقطع أمله فيهم ، فلم يدر درهم عليه ، ولم تهطل سحائبهم فى جيوبه ذهباً وفضة — انتفى منهم ، وألحق نسبه بغيرهم ، فهو فى الـكوفة عنزى ، وفى بغداد يمانى أو لخمى .

هذا الذى جرى عليه أبو العتاهية فى نسبه — هو بعينه الذى يجرى عليه فى مذهبه ؛ أما فى الـكوفة فإننا لا نستطيع أن نحدد له مذهباً خاصاً كما قدمنا ، ولا سيما أن أكثر شعره هناك ضاع ، ولم يصل إلينا منه إلا القليل جداً ، فهو لا يصور لنا حياته هناك أوضح التصوير ، و إن كان يغلب عليه الانخناث والمجون والتمتع كما ذكرنا .

وهو فى بغداد يجرى غالباً على ما جرى عليه فى الكوفة حتى زمن الرشيد ، فإنه أراد أن يتزهد ويتنسك ، ويخرج من حالة المجون والمرح إلى حالة أخرى هى منها فى النقيض ، صور فى نفسه رجلا متزهداً متقشفاً يلبس الصوف ، ويترك المنادمة ، ويجانب شعر الغزل ، ويباعد بينه وبين حياة المجون ، حتى إن الرشيد ، ولى نعمته فى عصره ومقدمه على كثير من الشعراء — طلب إليه يوماً بعد إعلان تنسكه للناس أن يقول شعراً فى الغزل فأبى ، فوجد عليه ، فضربه ستين عصاً ، وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول شعراً فى الغزل ، ويظهر أن هذه كانت نوبة من نوبات تعنته ، فإنه خالف سيده ، ولم يأبه بغضبه ، ولم يروعه عقابه ، بل قال ، وقد رفعت عنه المقارع : كل مملوك له حر ، وامرأته طالق إن تكلم سنة إلا بالقرآن ، أو بلا إله إلا الله ، محمد رسول الله . ولعل عناده هذا ، وصلابة رأيه أمام الخليفة ، هو الذى جعل الخليفة يحزن منه ، ويأمر بحبسه ، ومع ذلك فهو غير حانق عليه ، ولا غير آمل فى رضاه ، فلم يشأ تعذيبه فى السجن ، ولم يحل بينه وبين من يريد الدخول عليه ، فقد يكون من هؤلاء من يصلحه ويرده إلى طاعة الخليفة . وقد كان من قبل لا يفارقه فى سفر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، فوسط الفضل بن الربيع بينه وبين الخليفة ، وكتب إليه بعد أن استبطأ رجاءه .

أجفوتنى فيمن جفانى ... وجعلت شانك غير شانى ؟
ولطالما منيتنى ... مما أرى كل الأمانى
حتى إذا انقلب الزما ... ن علىّ صرت مع الزمان

وكتب إلى الرشيد يترضاه ويستعطفه :

أنا اليومَ لى ، والحمد لله ، أشهر ... يروح علىّ الهم منكم ويبكر
تذكَّرْ أمين الله حقى وحرمتى ... وما كنت تولينى ، لعلك تذكر
ليالى تدنى منك بالقرب مجلسى ... ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لىَ بالعين التى كنت مرة ... إلىّ بها فى سالف الدهر تنظر ؟

فلم يحفل الرشيد بقوله ؛ ولما ضاق صدره ، وسئمت نفسه بيتاً صغيرا هو خمسة أشبار فى مثلها — صاح :

أرقت وطار عن عينى النعاس ... ونام السامرون ولم يواسوا
أمين الله ، أمنك خير أمن ... عليك من التقى فيه لباس
تساس من السماء بكل بر ... وأنت به تسوس كما تساس
كأن الخلق ركب فيه روح ... له جسد وأنت عليه راس
أمين الله إن الحبس بأس ... وقد أُرسلت ، ليس عليك باس

وله شعر كثير فى الحبس يستعطف به الرشيد ، فلم يعطف عليه حتى عاد إلى حالته الأولى من قرض الغزل ، وحنث فى يمينه ،

كما تؤكد أكثر الروايات ، وإحداها مروية عن ابنه محمد . ومما قاله وهو محبوس :

يا ابنَ عمّ النبي سمعاً وطاعه   قد خلعنا الكساء والدُّرَّاعه
ورجعنا إلى الصناعة لما   كان سخط الإمام ترك الصناعه

وقال أيضاً :

أما رَحِمْتني يوم ولت فأسرعت   وقد تركتني واقفاً أتلفت
أقلب طرفي كي أراها فلا أرى   وأطلب عيني دَرَّها وأصوت

فلم يزل الرشيد متوانياً في إخراجه إلى أن قال:

أما والله إن الظلم لُوم   وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديَّان يوم الدين نمضي   وعند الله تجتمع الخصوم
لأمرٍ مّا تفرقت الليالي   وأمرٍ مّا تبدّدت النجوم
تموت غداً وأنت قريرُ عين   من الغَفَلات في لجج تعوم
تنام ولم تنم عنك المنايا   تنبه للمنية يا نؤوم
سل الأيام عن أممٍ تقضت   ستخبرك المعالم والرسوم
تروم الخلد في دار المنايا   وكم قد رام غيرُك ما تروم
ألا يا أيها الملك المرجّى   عليه نواهض الدنيا تحوم
أقلني ذلة لم أجر منها   إلى لوم وما قبلي ملوم
وخلصني تخلص يوم بعث   إذا للناس برزت الجحيم

وبعد أن خرج وقف أمام الرشيد وأنشده :

يا عتب ، سيدتى ، أمالك دينُ ... حتى متى قلبى لديكِ رهين ؟
وأنا الذَّلول لكل ما حمَّلتنِى ... وأنا الشقىّ البائس المسكين
وأنا الغداةَ لكل باكٍ مسعد ... ولكل صب صاحبٌ وخدين
لا بأس إن لذاكِ عندى راحةً ... والصبُّ إن يلق الحزينَ حزين
يا عتب ، أين أفر منك ؟ أميرتى ... وعلىّ حصن من هواك حصين

فأبو العتاهية يتزهد ويلبس الصوف ، فإذا ضيق عليه خلع صوفه ولبس لبسه الأول ، وقرض الشعر فى الغزل ، وإنه لو كان قد فعل ذلك عن عقيدة راسخة يطمئن إليها قلبه لما بالى خشونة العيش ، ومرارة الحبس .

ولقد قرأت أن كثيراً من الناس عذبوا ليبدوا رأياً غير مايعتقدونه فلم يفعلوا ، وقد أدى ذلك إلى تعذيبهم ، وتشديد النكير عليهم ، بل إلى إتلاف نفوسهم ، ومع ذلك فهم على مذاهبهم باقون ثابتون ، أما أبو العتاهية فإنه تزهد لاحباً فى التزهد ، ولكنه رجل شاعر سلك بشعره هذا المسلك لأنه زعم أن له خيراً فيه ، رووا عنه أنه قال ، « إن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولامن مذاهب رواة الشعر ، ولاطلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد ، وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم مافهموه » فهو يستحسن

مذهب الزهاد في الشعر، ولذلك سلكه، وهو يقرر أنه ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب الرواة ، وأن أشغف الناس بهذا اللون من الشعر إنما هم الزهاد أنفسهم ، وأهل التقى والورع والمراءون ؛ فهو أراد أن ينشد شعراً من هذا النوع يرضى به الزهاد وأهل التقى والورع لا لأنه زاهد وتقي وورع ، فلما رأى أن فيه تغيظاً عليه ، وإغضاباً للخليفة ، لم يقتصر عليه ، بل قاله مع غيره مما يحب الخليفة ويهوى ولست مؤمناً بأن ما قاله في الزهد كان أكثر مما قاله في غيره ، وإن كان ماوصل إلينا من شعره أكثر من تسعة أعشاره في زهدياته لأنه إنما أظهر زهده في زمن الرشيد ، أي بعد أن ملأ الكوفة غزلا ومدحاً وهجاء، وبعد أن ملأ بغداد زمن المهدي والهادي وصدر خلافة الرشيد بمثل ذلك — وأخباره مع عتبة جارية المهدي مذكورة مشهورة فأين كل هذا الشعر ؟ إنه قد ضاع . وذكر صاحب الفهرست أنه رأى من شعره بالموصل نيفاً وعشرين جزءاً بخط ابن عمار كاتب شعر المحدثين ، وذكر أن مارآه يدل على أنه من ثلاثين جزءاً [1] ويظهر أنه اهتم في أيامه الأخيرة بقرض الشعر في الزهد وغيره ، ولكنه كان أحرص وأبقى على زهدياته منه على غزلياته، وقصائد مجونه ، أو أن شعره في الزهد وقع لجماعة من المجبرة ، ووجدوا فيه قوة لهم ، فنقلوه

(١) الفهرس لابن النديم ص ٢٢٧

وتداولوه ، فوصل هو دون غيره . وسنذكر ذلك مفصلا حينما نتحدث عن زهده فى البحث التالى .

والشاعر إذا كان مرائياً ينظم فى غير ما يعتقد ، فإنه يخونه حرصه أحياناً ، فيبدو منه ما ينم عن حقيقته . وأبو العتاهية كان يظهر الزهد ، ويبالغ فى ذلك ، ويكثر من شعر الزهاد ، ويذكر دائماً الدنيا وبلاءها ، والموت الذى لابد أن ينتهى إليه كل آدمى ، إلا أن الانخناث كان يعاوده أحياناً ، فيشهر به أعداؤه ، ويحاولون إثارة سخط العامة عليه ، وكان من هؤلاء منصور بن عمار الذى رماه بالزندقة لحاجة فى نفسه ، فإنه قيل : إن منصوراً هذا لما قص على الناس خبر البعوضة [1] ، قال أبو العتاهية : (إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفى) فبلغ قوله منصوراً فقال : (أبوالعتاهية زنديق ، أما ترونه لا يذكر فى شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ؟) فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال :

يا واعظ الناس قد أصبحت متَّهما إذ عِبْتَ منهم أموراً أنت تأتيها

---

(١) يريد بذلك أنه تحدث إلى الناس عن البعوضة من حيث خلقها وصفاتها وأسرار خلقها ، وما فى هذا من دلالة على قدرة الله ، ويعبر المتقدمون عن مثل هذا « بالمجلس » فيقولون : مجلس البعوضة ، ومجلس النملة ؟ ويريدون بذلك المجلس الذي يتكلم فيه الناس عن هذه الأشياء ، وتحليلها من الناحية البلاغية أنهم يطلقون المكان ، وهو المجلس ، ويريدون مايقع فيه ، وهو الحديث .

كالملبس الثوب من عُرْى وعورته   للنـاس بادية ما إن يواريها
فأعظم الإثم بعد الشرك تعلمه   فى كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها   منهم ولا تُبصر العيبَ الذى فيها

كما شَنَّع عليه بقوله فى عتبة :

كأن عَتّابة من حسنها   دمية قَسٍّ فَتَنَت قسها
يا رب لو أنسيتنيها بما   فى جنة الفردوس لم أنسها

والحق أن منصور بن عمار لم ينصف أبا العتاهية ، فإنه رماه بعدم ذكر الجنة والنار فى شعره ، وقد جاراه فى ذلك كثير من العلماء من بعده ، لأن أبا العتـاهية ذكر ذلك فى مواضع كثيرة من شعره المذكور فى ديوانه ومن ذلك قوله :

فلو كان هولُ الموت لا شىءَ بعده   لهان علينا الأمر واحتُقر الأمر
ولكنه حشر ونشر وجنـة   ونار ، وما قد يستطيل به الخُبْر

* * *

ولئن كان أبو العتاهية زنديقاً حقاً لما كان يستطيع أن يظهر ذلك وخلفاء المسلمين أولياء نعمته ، ومقدموه فى مجالسهم ، ومحبو شعره ومانحوه جوائزهم . ولئن كان زنديقاً حقاً لما حال أحد بينه و بين أن يعمل ما يريد إذا خلا إلى نفسه ، وأمن الوشاة ، وعيون الخليفة . والذى قرأناه من ذلك أن أبا العتاهية كان يقنت فى الليل ، ولقد رأته امرأة ليـلة ، فروت عنه أنه كلم القمر ، واتصل الخبر بحمدَوَيْهِ

صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها ، وبات وأشرف على أبى العتاهية ، فرآه يصلى ، ولم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه ، وانصرف حمدويه خاسئا .

يتبين من هذا أن الحديث عن زندقته فيه وهن وضعف .

بقى أن نعرض أنه كان جبرياً ، ولعل هذا هو الذى اشتهر عنه فى زمنه ، إذ لولا ذلك لما وقعت له مناظرات مع زعماء المعتزلة فى عصره ، ومنهم بشر بن المعتمر ، وثمامة بن الأشرس ، وهو وإن كان قليل المعرفة ، ضعيف الحجة ، غير متفقه فى مسائل النظر والجدل ـ فإنه كان لسان المجبرة الشاعر ، لا لسانهم المناظر ، ولهذا كان يفحمه مناظره ، متى وقعت بينهما المناظرة ويعيره بأنه شاعر لا شأن له بالجدل[1] .

وأبو العتاهية حينما تزهد احترف الحجامة ، فقابله يوماً بشر بن المعتمر وقال له : بلغنى أنك لما نَسَكْتَ جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل ، أكذلك كان ؟ فقال : نعم ، قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسى حسبما رفعتنى الدنيا ، وأضع منها ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب . وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة ، فقال له بشر : دعنى من تذليل نفسك بالحجامة فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به

(١) مناظرته لثمامه بين يدى المأمون ص ٦ أغانى جـ ٤

أمر غيرك ، أحب أن تخبرنى : هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ، قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن تخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم ؟ قال : لا ، قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين .

وسئل يوماً عن خلق القرآن ، فقال : أسألتنى عن الله أم عن غير الله ؟ فقال له السائل : عن غير الله ، فأمسك . فأعاد عليه السؤال ، فأجاب أبو العتاهية هذا الجواب حتى فعل ذلك مراراً ، فقال له السائل : مالك لا تجيبنى ؟ قال : أجبتك ولكنك حمار .

فأبو العتاهية شاعر أجاد القول فى الغزل والمدح والهجاء أولا ، ثم تزهد فأجاد القول فى الزهد أحياناً ، وفيما يتصل به من ذم الناس، وتقبيح الدنيا ، والدعاء إلى عدم الاكتراث بها أحياناً ، ولكن شعره فى زهده لا يمثل حقيقة نفسه كما أن شعره فى المال والدعوة إلى عدم العناية بحفظه ، والتكالب على جمعه — لا يمثل خلقه ، فهو من أبخل الناس الذين حفظ لنا التاريخ نوادر بخلهم ، وأما أن بعض شعره قوى فى هذا أو ذاك فلأنه شاعر مطبوع قدير ، ينكر أبو نواس على نفسه أنه أشعر الناس والشيخ حى (يريد أبا العتاهية) ، ويغضب ابن الأعرابى على من تبرم بشعره ويقسم أنه ما رأى شاعراً قط أطبع

ولا أقدر منـه ، ويقرر أنه لا يحسب مذهبه فى الشعر إلا ضرباً من السحر ، وهو الذى يقول عن نفسه : إنه ما أراد الشعر قط إلا مثل له ، فيقول ما يريد ، ويترك مالا يريد ؛ وهو الذى يبدى جعفر بن يحيى أنه أشعر الناس فى عصره فيوافقه الفراء ؛ بل كان الناس يبالغون فى شدة إعجابهم به ، ويزعمون أنه أشعر الإنس والجن مبالغة فى تقديرهم له ، وشاعر هذا أمره ، يقول فى الزهد فيجيد وقد يكون من أبعد الناس عن الزهد ، ويشعر فى الجود والكرم ويجيد ، وهو من أبخل أهل عصره .

ومهما يكن من أمر أبى العتـاهية فإن سلوكه مسلك النساك ، ومحـاولته الظهور بمظهر الزهاد غيّر نسج شعره كثيراً ، وألبسه ثوباً جديداً غير الذى كان يلبسه من قبل ، ولعل ذلك أكثر ما يكون وضوحاً فى قصائد الرثاء ، لأنها ألصق فنون الشعر بالتزهد ، ويظهر فيها مذهب الشاعر ونزعته التى ينزع إليها . اقرأ قوله يرثى زائدة بن معن بن زائدة وهو يومئذ بالكوفة ، أى أنه ما كان يعرف طريق الزهاد بعد :

حزنت لموت زائدة بن معن ... حقيقٌ أن يطول عليـه حزنى
فـتى الفتيان زائدةُ المصـفّى ... أبو العباس كان أخى وخِدْنى
فتى قوم ، وأى فتى توارت ... به الأكفان تحت ثرى ولبن

ألا يا قبر زائدة بن معن دعوتك كى تجيب فلم تجبنى
سل الأيام عن أركان قومى أصبْتُ بهن ركنا بعد ركن

فهو يحزن لفقد زائدة ، و يطيل عليه حزنه ، و يذكر بعضا من صفاته ، ثم يناجي قبره ، وهذا المنحى معروف فى الرثاء ، يسلكه أكثر الشعراء . ثم اقرأ قوله عند أول عهده ببغداد ، يرثى يزيد ابن منصور خال المهدى ، وكان باراً بأبى العتاهية ، كثيرا فضله عليه وكان أبو العتاهية منه فى منعة وحصن حصين ، مع كثرة ما يدفعه إليه ويمنعه من المكاره كما تقدم :

أنعى يزيد بن منصور إلى البشر أنعى يزيد لأهل البدو والحضر
ياساكن الحضرة المهجورساكنها بعد المقاصر والأبواب والحجر
وجدت فقدك فى مالى وفى نسبى وجدت فقدك فى شعرى وفى بَشَرى
فلست أدرى ، جزاك الله صالحة أمنظرى اليوم أسوافيك أم خبرى؟

فهو لا يرثى يزيد بأكثر مما يرثى به زائدة فى الكوفة ، ينعاه ويندبه ، ويندب فجيعته فيه بعد موته ، ويحس فقده فى عوارفه وأفضاله التى كان يسبغها عليه .

وخلاصة القول فى أبى العتاهية أنه : ما كان زنديقا ، وما أظهر الزندقة ، وما فعل فعل المتزندقين ، وما كان للرجل وهو نديم الخلفاء وسميرهم ، والمقرب إليهم أن يتزندق فى رحابهم ، وكذلك ما كان

زاهداً ، وما كان شعره فى الزهد لله وفى الله ، ولـكنه طريق سلكه فى شعره لإظهار الحسرة والأسى على حبيبته عتبة التى ملأ الدنيا شعراً فى التشبيب بها ، و إظهار حبه لها وهى تتمنع عليه ، وتنفر منه ، فرق له الرشيد ، لأنه تجرأ وأكثر مسألته فيها ، فوعده بتزويجه إياها إن أجابت ، فلما فاتحها فى ذلك الرشيد اعتذرت ، وقالت : إنى حلفت بأبيك و بكل يمين يحلفها بر وفاجر ، وبالمشى إلى بيت الله الحرام حافية ، كلما انقضت عنى حجة وجبت على أخرى ، لا أقتصر على الكفارة ، وكلما أفدت شيئاً تصدقت به إلا ما أصلى فيه — و بكت بين يديه فرق لها ورحمها ، وانصرف عنها ، وأخبر أبا العتاهية الخبر ، فمكث مليا لا يدرى أين هو ؟ أقاعد أم قائم ؟ و يئس بعد أن ردت الخليفة ، وعلم أنها لا تجيب أحداً بعده ، فلبس الصوف وقال :

قطعت منك حبائل الآمال   وحططت عن ظهر المطى رحالى
ووجدت برد اليأس بين جوانحى   فغنيت عن حل وعن ترحال[1]

فلم لا ينشد أبو العتاهية شعراً فى الزهد و بغض الدنيا ، وقد قطعت حبائل آماله فى أحب الناس إليه ، و إنما هو شعر ما كان لله وفى الله ، كما قلت ، ولـكنه أنشده يسرى عن نفسه لوعة الحزن ويفرج كربة الهم التى انتابته من أجل عتبة .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٣

ولو أنه كان مجبراً حقاً ، كما نسب إليه فى زمنه ، لما نعى على العلماء اختلافهم ، وبكتهم على كثرة مؤاخذة بعضهم بعضا ، قال :

بكى شجوءُ الإسلام عن علمائه ... فما اكترثوا مما رأوا من بكائه
فأكثرهم مستقبح لصواب من ... يخالفه مستحسن لخطائه
فأيهم المرجوُّ فينا لدينه ... وأيهم الموثوق فينا برائه !

ثم ماذا فعل المشيب برجل يكره الدنيا حتى يحنّ إلى شبابه ، أفيكون الحنين إلى الشباب من فعل الزهاد ! اقرأوا قوله :

بكيت على الشباب بدمع عينى ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفا بكيت على شباب ... نعاه الشيب والرأس الخضيب
عَرِيت من الشباب وكنت غضا ... كما يَعرَى من الورق القضيب
ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

وكونهم يروون عنه أنه قال : قرأت البارحة « عم يتساءلون » ثم قلت قصيدة أحسن منها — إما أن يكون هذا تشنيعا عليه أراد أن يغيظه به أعداؤه ، ومنافسوه على باب الخلافة ، وإما أن يكون هزلا وهذرا خرج به عن حد الاعتدال والقصد .

ومع ذلك فقد وصفه أهل عصره ، أو بعضهم ، بأنه رجل حر الفكر ، لا يتقيد بدين ولا عقيدة إذا شعر ، وقالوا : إنه حاول « أن يجد حلا لمعضلة الاثنينية ، فقال : « إن الله خلق جوهرين متضادين منهما انبثق كل شىء ، وإليهما يعود كل شىء »[1]

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ، العدد السادس .

زهد أبي العتاهية وأبي نواس

عاش بشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية والحسين ابن الضحاك وغيرهم فى القرن الثانى من الهجرة، وأدرك بعضهم أوائل القرن الثالث ؛ وكان من خلفاء هذا القرن أبو جعفر المنصور والمهدى والهادى والرشيد والأمين ، والمأمون فى بعض أيام خلافته ، والمملكة الإسلامية فى هذا العهد امتدّ سلطانها حتى شرّقت إلى الهند والصين ، وغرّبت إلى المحيط الإطلنطيق . وكان مستوى المعيشة فى هذه الأيام راقياً فى بعض نواحيه ، وكان الشعب طبقتين : طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة والقضاة ، وطبقة العامة . وكان بين الطبقتين عدد من الشعراء والقصاص والمحدّثين والفقهاء والمتكلمين والسمّار ، وغيرهم ممن كانوا يعيشون على موائد الطبقة الأرستقراطية ، يجلسون فى مجالس الكبراء ، ويأخذون جوائزهم ؛ وكانت الضرائب تجبى من الهند وفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية ، وينتقل بها البريد كلها أو أكثرها لتصبّ فى بيت المال فى بغداد فينعم بها الخلفاء والأمراء والوزراء بعد أن ينفقوا على الجيش ، ويدفعوا

مرتبات العسكر . وكان الخلفاء يقطعون الأمراء إقطاعات يستغلونها لهم ولأولادهم .

هذا العصر — ككل عصر من عصور التاريخ فى كل دولة من الدول ، وفى كل مجتمع من المجتمعات ، وفى كل مجلس من المجالس الخاصة والعامة — تجد فيه الجد والهزل ، فإذا جدّ الناس حيناً هزلوا أحياناً ، وقد يهزلون حيناً ويجدون أحياناً ، ولا فرق بين مجتمع ومجتمع ، أو دولة ودولة ، إلا أن هذه يغلب عليها الجد ، أو يغلب عليها الهزل . ولكن الذى لا بد منه أن يكون فى الدولة أو المجتمع أو المجلس جادّون وهازلون ، متزمتون وعابثون .

ومن مظاهر الجد مثلا كثرة المتكلمين والفلاسفة والزهاد والمتصوفة وهؤلاء جادون متطرفون ، ومن مظاهر الغزل مثلا الإكثار من الحديث فى الغزل والتشبيب والخمر والصيد والطرد ، وعقد مجالس الأنس ، واجتماع الناس لها ، واحتفالهم بها ، وهؤلاء هازلون متطرفون . ولكن هناك نوعا من الهزل يقصد به إلى ترويح القلوب ساعة بعد ساعة حتى لا يقتلها الملل ، وهذا يكون فى مجالس العلم والوقار ، يتملح به الناس الفينة بعد الفينة .

والباحثون يقولون : إن هذا العصر من عمر هذه الدولة يغلب عليه العبث واللهو والمجون ، أو إن هذا العصر من عمر هـذه الدولة

يغلب عليه الجد والتزمت والوقار ، ويقيسون بكثرة ما يروى من أدب هذا العصر أو ذاك ، وبنوع المروىّ ، واللون الغالب عليه ، جد هو أو هزل . ولقد يبالغون فى ذلك أيما مبالغة ، فيزعمون أن فلانا الشاعر صورة اجتماعية حقيقية للعصر الذى كان يعيش فيه ؛ فإن كان ماجنا أو غلب عليه المجون فعصره عصر هازل ماجن ، أو يغلب عليه الهزل والمجون . وإن كان جادا أو يغلب عليه الجد فعصره جاد وقور ، أو يغلب عليه الجد والوقار .

وإذا سلمنا بهذا المبدأ ، وقضينا على البحث العلمى بالخضوع له — كما فعل بعض المعاصرين — نكون قد أسرفنا إسرافاً كثيراً فى هذا الحكم ، وتجنينا على السابقين ، وحكمنا عليهم بغير ما يجب أن يحكم عليهم به . وذلك مرجعه إلى أن الرواة أكثر ما يروون الأدب الخفيف على القلب ، السهل الجريان على اللسان ، الكثير الدوران بين الناس ، الذى إذا رُوى فى مجلس من المجالس أشاع فى جوانبه السرور ، ولا يفعل ذلك إلا الأديب الماجن الهازل العابث الخليع فى ألوانه المختلفة ، ودرجاته المتباينة . ولعلك تدرك ذلك فى مجالسك الخاصة والعامة ، فإن المجلس الذى يغلب عليه الجد يطول بك على قصره ، وتمله رغم فائدته ، ولكنه إذا تخلل جده نكتة طريفة أو ملحة ظريفة ، أو لفتة هازلة ، أو نادرة مليحة خرجت بالمجلس

من الموت إلى الحياة ، ومن الرقود إلى النشاط ، وأزلت ما يعتريه من ملل وسآمة وخمول ، وهكذا كان طبع القدماء ، وهو طبع المحدثين ، وسيظل كذلك طبع الناس ما دام الناس .

لهذا نرى أن شاعراً من الشعراء لا يمكن أن يكون المأثور من شعره هو وحده صورة صحيحة صادقة للحياة الاجتماعية فى العصر الذى عاش فيه ، وإنما هو يصور ناحية من نواحى هذا العصر ، ويقيم زاوية من زواياه . فإذا أردت أن تتصور الحياة الاجتماعية فى القرن الثانى للهجرة تصوراً صحيحاً صادقاً ـ فلا تلتمسها فى شعر بشار وحده ، ولا تلتمسها فى شعر أبى نواس وحده ، ولا تلتمسها فى شعر أبى العتاهية وحده ، ولكن التمسها فى شعر بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضَّحَّاك ومروانَ بنِ أبى حفصة وأبى العتاهية وعِمْران ابن حِطّان وصالح بن عبد القدوس والسيد الحِمْيَرى وسَلْم الخاسر والعباس بن الأحنف والعتَّابى وأشْجع وأبى الشِّيص وعلى بن جَبَلَة ودعْبل ، وغيرهم . لا تلتمسها فى شعر واحد منهم ، ولكن التمسها فى شعرهم جميعاً . وأذهب بك إلى أبعد من هذا فأقول لك : لا تلتمس صورة صحيحة صادقة للحياة الاجتماعية فى هذا العصر بدراسة شعر شعرائه وحدهم ، بل ادرُسْ معه خطب داود بن على وأبى جعفر المنصور وشَبيب بن شَيْبَة وغيرهم من الخطباء ؛ وادرس معه كتابة

ابن المقفع وإبراهيم الصولي وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف وغيرهم من الكتاب . ولا أكتفي بهذا بل أنصح بدراسة الخليل وسيبويه والكسائي ، وبدراسة سفيان بن عُيَيْنَة ووَكيع بن الجراح والإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم . أنصح بدراسة هؤلاء جميعاً ، إذ منهم الخطباء والكتاب والمحدثون والمفسرون والفقهاء والنحاة واللغويون ، ولكل من هؤلاء ثقافته واتجاهه وميله ، ولكل منهم أشياع وأنصار ، وكل شيعة تمثل ناحية من نواحي الحياة في هذا العصر ، فإذا أنت أغفلت في دراستك واحداً من هؤلاء فقد أغفلت جانباً من جوانب الحياة ، وأظهرتها للناس على وضع غير الذي كان يجب أن تظهرها عليه ، أو على وضع غير الذي كانت عليه ؛ وأخرجتها في صورة شوهاء ناقصة ، وحكمت بأنها جميلة واضحة ، وفي هذا تجنٍّ على أهل الجيل ، وتجنٍّ على الأدب ، وتجنٍّ على التاريخ .

بعد هذا كله أستطيع أن أذكر لك أن زهد أبي العتاهية لا يمثل العصر الذي عاش فيه إلا من هذه الناحية ، وأن مجون أبي نواس لا يمثل العصر الذي عاش فيه إلا من هذه الناحية أيضاً ، بل أستطيع أن أقول لك : إن زهد أبي العتاهية لا يصور العصر الذي عاش فيه من هذه الناحية خير تصوير ، لأنه زهد متصنع ، فهو ينظم فيه ليرضى الناس عنه ، وإن مجون أبي نواس لا يصور العصر الذي عاش

فيه خير تصوير ، لأنه صادر عن نفس خليعة ماجنة هازلة عابثة ، فهو لا يصوّر إلا نفسه ، وأفراداً يلفون لفّه و يفهمون الحياة على الوجه الذى فهمها به .

والإنسان — مهما عبث وغوى، ومهما هزل ومجن، ومهما طغت عليه اللذة المادية ، ومهما نسى الناحية الروحانية — فإنه لا بد أن يمر به وقت تختلسه نفسه وهو غارق فى بحر اللذة ، يشع فيها الضوء الإلهى، ثم لا يلبث أن يخبو . وهذا الوقت يقصر أو يطول بحسب مقدار نقاء النفس ، وخلوص السريرة ، ومقدار نورانيتها . وأكثر ما يكون ذلك حينما يفيق الإنسان من غفلة ، أو يحز به أمر ، أو يلحقه ضيق، أو يمسّه ضر ، أو يقع عليه ظلم ، أو يستبد به حاكم ، فإنه إذ ذاك تهتز مشاعره اهتزاز المغشى عليه بدأ يفيق ، ويقول : الله .

وإذا نحن سلمنا بهذا أيقنا بعده أن أبا نواس وغير أبى نواس من المتخنثين والخلعاء الماجنين كانت تشرق عليهم مثل هذه اللحظات ، ويشع نورها فى جوانب نفوسهم ، فيخلعون رداء المادة ، ويلبسون رداء روحانياً لطيفاً ، فيصورونه كلاماً يجرى على ألسنتهم، وكلٌّ على شاكلته : فالشاعر يصوره شعراً ، والناثر يصوره نثراً ، والمغنّى يصوره نغما ، والفنان يصوره رسما ، والعالم يصوره على أسلوب علمه ، وهكذا .

ولعل هذا هو الخطوة الأولى فى توبة التائبين عن ذنوبهم ، فإنهم تشرق عليهم مثل هذه اللحظات ، وتتمكن من نفوسهم ، وتصادف فيها هوى قويا يهزم سلطان المادة ، ويطغى عليه ، فلا يعود ويصبح الواحد منهم رجلا تائبا نائبا متبتلا صوّاما قوّاما .

وآية ذلك ما نراه بين ظهرانينا اليوم ؛ فقد يتطرف الرجل ويستهين بالحياة ، ويسدر فى غلوائه ، ويوفر لنفسه أسباب السرور بالمشروع وغير المشروع ، يصبح على الكأس ، ويمسى على الكأس ويقوم من مجلس إلى مجلس . يراشف ويقامر ويراقص ، يغدو على ملعب ويروح إلى مرقص ، ولكنك تراه أحيانا يئن أنة المكلوم ويتأوه آهة المحزون ، ويتململ تململ الفزع ، ويضطرب اضطراب المفئود ، ويخشخش خشخشة المصدور ، ويتهالك تهالك المجهود ، ويرفع رأسه إلى السماء ناظراً بعينين كسيرتين ، ويضرع إلى الله فى صوت متهدج محزون أن يغفر له ما تقدم من ذنبه ، ويمحو عنه عار الإثم ، ويمسح أرجاسه ، ويغسل أوضاره ، ومثل هؤلاء يستجيب الله دعاء بعضهم ، فيغفر لهم ، ويتوب عليهم ، فلا يلبثون أن تعاودهم النكسة ، وتتمكن منهم الوكسة فيعودون إلى شرٍّ مما كانوا .

وطبائع الناس وغرائزهم اليوم هى طبائعهم وغرائزهم زمن أبى العتاهية وأبى نواس ، وهى طبائعهم وغرائزهم زمن غير

أبى العتاهية وأبى نواس ، لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا نواس يزهد أحيانا ، و يصنع شعراً فى الزهد ، ولا نعجب إذا قررنا أن شعر أبى نواس فى الزهد ليس كله مقولا فى آخر أيامه حين شاخ وضعف وفرغ من الدنيا ، ولا نعجب إذا خالفنا الباحثين فى أن شعر الزهد عنده لم يكن قاله كله أو أكثره تغيظا على أبى العتاهية ، و إنما هى ومضات نفس خبيثة تلألأت أحياناً ، فكشفت عن مقطوعات شعرية زاهدة قوية خالصة من شوائب الإثم والفجور؛ هذه الومضات بوعد بين بعضها و بعض فى زمن الشباب ، وكلما تقدم به العمر تقلّص الزمن بين كل ومضتين ، ثم صار يتقلص و يتقلص حتى تلاحمت الومضات أو كادت فى أخريات عمره . ولعل اشتهار أبى نواس بالخلاعة والمجون ، والنزوع إلى الغلمان ، طغى طغياناً قليلا أو كثيراً على مقطوعات الومضات الزاهدة فلم يروها الرواة كلها عنه ، أو لعلهم كانوا لا يصدقون أنها له ، ولو دروا أنها صدرت من قلب تاب بعض الوقت ، وعبرت عن توبته أصدق التعبير ، لحفظوها له ، أو لعل الذين كانوا يروون عنه شعره أكثرهم من الندمان والسقاة والمتخنثين، فلا يحبون أن يذيع هذا النوع من الشعر عن سيدهم ، فيفسد عليهم أمرهم ، فيحاولوا أن يحولوا بين هذا الشعر و بين الذيوع .

انظر إليه يشرب عند عبيد بن المنذر ، فبات ليلة ، ثم قال :

لابد من عَمّى ، ثم خرج مع رفاقه ودخلوا حانة خمار كان يعرفه ، ومعه غلام كان أفسده على أبويه ، وغيبه عنهما زمناً ، وقضى بعض الوقت فى أطيب موضع ، على مايرى ، وبينما هم يتذاكرون الحديث، جرى ذكر الجنة وطيبها ، والمعاصى وحيلولتها دونها ، وظل أبو نواس ساكتاً ثم قال :

ياناظراً فى الدين ، ما الأمر؟ لا قَدَرٌ صَحّ ولا جَبْرُ
ما صح عندى من جميع الذى تذكره إلا الموتُ والقبر

فامتعض بعض الذى حضر ، وأطالوا توبيخه ، وتخوّفوا صحبته ، فقال : ويلكم ! والله إنى لأعلم بما تقولون ، ولكن المجون يفرط علىّ ، وأرجو أن أتوب ، ويرحمنى الله ثم قال :

أيةَ نار قدح القادحُ وأىَّ جِدٍّ بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح
يأبى الفتى إلا اتباعَ الهوى ومنهجُ الحق له واضح
فاعْمَد بعينيك إلى نسوة مهورُهن العمل الصالح
لا يَجْتلى العذراءَ من خدرها إلا امرؤٌ ميزانُه راجح
من اتقى الله فذاك الذى سيق إليه المتجر الرابح

ثم قال ، هذا عمل الشيطان ، ألقى أكثر هذا الكلام ليفسد نومكم ، فلما همّوا بالانصراف قال : أمهلوا ، ثم أنشدهم :

يارُبَّ مجلس فتيان لهوتُ به والليل مُسْتَحْلس فى ثوب ظلماء
نسف صافية من صدر خابية تعشَى عيون نداماها بلألاء(١)

وهذه الحادثة تريك كيف أنه كان يعاقر الخمر فى حانة ، وجرى على لسانه بيتان ينكر فيهما الجبر والقدر والبعث والحشر والحساب ، ولا يؤمن إلا بالحياة الدنيا يموت ويحيا وما يهلكه إلا الدهر . وفى وسط هذا الظلام انبعثت فى سدُوفه ومضة ما كادت تشرق حتى أفَلَت ، وفى فترة الإشراق القصيرة جرت على لسانه أبيات لا تصدر إلا عن رجل مؤمن بالله ووحدانيته وقدرته، ثم عاد إلى الشعر الذى هو فيه ، وإن رجلا مثل أبى نواس قرأ القرآن ، واختلف فى طلب الحديث ، وحفظ أيام الناس ، وروى الشعر عن القدماء والمحدثين ، وأجاد نظم الشعر وحفظ اللغة ، حتى قال عنه الجاحظ ، ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبى نواس ، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ، ومجانبة للإكراه .

وإن رجلا هذا شأنه يقول فى الزهد ويجيد ، فهو القائل :

ألا رُبَّ وجهٍ فى التراب عتيق ألا ربَّ رأس فى التراب رقيق
أرى كل حى هالكا وابنَ هالك وذا حسب فى الهالكين عريق

---

(١) تاريخ بغداد ، المجلد السابع

فقل لمقيم الدار إنك ظاعن إلى سفر نائى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

قال هذا الشعر فى زمن الصبا حين قابله أبو عمر السلمى وأراد أبو نواس أن يسمعه شعراً فحاول أن ينصرف عنه، لأنه لا يحب أن يسمع هذره، ولكن أبا نواس أخلف ظنه، وأسمعه شعراً زاهداً جميلا، سرى منه بيتان بين الناس، وما زالا إلى اليوم؛ وهو الذى يقول:

يا نُواسىُّ توقر وتعزى وتصبر
إن يكن ساءك دهر إن ما سرك أكثر
يا كبيرَ الذنب عفـو الله من ذنبك أكبر
أعظم الأشياء فى أصغر عفو الله يصغر
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدَّر
ليس للمخلوق تدْ بيرٌ بل الله المدبر

ويكفى أن نقول: إن هذه الأبيات حينما روى لأبى العتاهية الثلاثة الأولى منها قال: قد قلت عشرين ألف بيت فى الزهد، ووددت أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها أبو نواس، ثم ذكر الأبيات. ويقول أيضاً: —

انقضت شِرتى فعفْت الملاهى إذ رمى الشيب مفرقى بالدواهى

ونهتني النهى فملت إلى العز ل وأشفقت من مقالة ناهي
أيها الغافل المقيم على اللهو ، ولا عذر في المعاد لساهي
لا بأعمالنا نطيق خلاصا يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أنا على الإساءة والتفريط نرجو جميل عفو الإله

وقال وهو يجود بنفسه :

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك، ربي ، كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منّة وتكرما
ولولاك لم يَصْمُد لإبليس عابد وكيف وقد أغوى صفيك آدما!

ويقول :

دبّ فيّ الفناء سفلا وعلوا وأراني أموت عضواً فعضوا
ذهبت شِرتي بجدة نفسي فتذكرت طاعة الله نضوا
ليس من ساعة مضت بِيَ إلا نقصتني بمرها بي جزوا
لهف نفسي على ليال وأيا م طِوالٍ مَرَرْن لعباً ولهوا
وأسأنا كل الإساءة يارب فصفحاً عنا إلهي وعفوا

ويقول :

وعظتك أجداث صمتْ ونعتك أزمنة خفتْ
وتكلمت عن أوجه تبلى وعن صور سَبَتْ
وأراك قبرك في القبور وأنت حيٌّ لم تمت

ويقول :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الذى يدعو ويرجو المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم!
مالى إليك وسيلة إلا الرجا وجميـل عفوك ثم أنى مسـلم

وقال للأمين — رداً عليه وقد اتهمه بالزندقة : —

أصلى الصلاة الخمس فى حين وقتها وأشهد بالتوحيد لله خاضعاً
وأحسن غسلى إن ركبت جنابة وإن جاء لى المسكين لم أك مانعاً
وإني وإن حانت من الكأس دعوة إلى بيعة الساقى أجبت مسارعا
وأشربها صرفاً على جنب ماعز وجدْيٍ كثير الشحم أصبح راضعا

ويقول :—

نموت ونبلى غير أن ذنوبنا إذا نحن متنا لا تموت ولا تبلى
ألا رب ذى عينين لا تنفعانه وما تنفع العينان مَنْ قلبه أعمى

ويقول : —

لو أن عيناً أوهمتها نفسها يوم الحساب ممثلا لم تطرف
سبحان ذى الملكوت آية ليلة محقت صحيفتها بيوم الموقف
كتب الفناء على البرية ربها فالنـاس بين مقـدَّمٍ ومُخلَّف

ويقول : —

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل ... خلوتُ، ولكن في الخلاء رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب
أقول إذا ضاقت على مذاهبي ... وحلت بقلبي للهموم ندوب
لطول جناياتي وعُظْم خطيئتي ... هلكت ومالى في المتاب نصيب
وأغرق في بحر المخافة آيساً ... وترجع نفسي تارة فتتوب
وتذكرني عفو الكريم عن الورى ... فأحيا وأرجو عفوه فأنيب
وأخضع في قولي وأرغب سائلا ... عسى كاشف البلوى عليَّ يتوب

ومن أبياته الدالة على التوحيد قوله في وصف النرجس :

تفكَّر في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال لما أراد الإحرام بالحج (١) :

يا مالكا ما أعْدَلَك
مليكَ كلٍّ من ملك

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠

لبيك إن الحمــد لك

والملك لاشريك لك

عبدك قد أهَلَّ لك

أنت له حيث سلك

لولاك يا رب هلك

لبيك إن الحمــد لك

والملك لاشريك لك

والليل لما أنْ حلك

والسابحات فى الفلك

على مجار تنسلك

كل نــبيّ وملَك

وكل من أهــلَّ لك

سبّح أو صلى فلك

لبيك إن الحمد لك

والملك لاشريك لك

يا مخطئاً ما أجهلك

عصيت ربا عَدَلك

عصيتَـــه وأمهلك

عجّـل وبادر أملك

واختم بخـــير عملك

لبيك إن الحمــد لك

والملك لا شريك لك

***

أما أبو العتاهية فإن له فى الزهد لوناً غير لون أبى نواس ، و إن ثمة فرقاً كبيراً بين زهده وزهد أبى نواس ، يمثله الفرق بين ثقافتيهما ؛ فأبو العتاهية رجل فقير ، نشأ فى بيت متواضع، وصنع الجرار مع أبيه ، فإذا نضجت الجرار حملها أبو العتاهية ، أوحملها أكّار معه على ظهره ، وسار بين الحوارى والأزقة فى مدينة الكوفة يبيع جراره ، و يساوم فى ثمنها ، فإذا ألهبت الشمس قفاه ، ومسّ حر التراب أخمص قدميه و بلغ به النصب مبلغه ـ أجاءه ما به إلى ظل حائط ، فيحط حمله ، و يجلس مسنداً إلى الحائط ظهره ، برما بالدنيا متسخطاً عليها ، فيلتف حوله الصبيان يعبثون به ، و يعبث بهم ، و يتبسط معهم فى الحديث ، و ينبسطون معه ، ثم يحتال حيلا لطيفة أو غير لطيفة ، ليسلبهم ما عسى أن يكون معهم من دراهم قليلة أو كثيرة ، حتى إذا احتوى منها مايساوى ثمن جراره أطال معهم الحديث ، والحديث ذو شجون ،

وتسقط منهم أخبار الأدب وسمعوا منه شعراً كتبوه على قطع الجرار، ثم ينصرفون مسرورين، ويعود هو إلى أبيه بالدراهم، ويتكرر منه ذلك كل يوم، أو فى أكثر الأيام، إلى أن يتيح الله له من ينقذه من جرار أبيه، ويمنحه بعض المال لأبيات يقولها مدحاً أو هجاء، حتى إذا عرف الشعر، واشتهر به بين الناس — تولى أخوه زيد بيع الجرار، وصار هو جرّار القوافى، وصار أخوه زيد جرّار التجارة — كما يقول صاحب الأغانى.

نشأ أبو العتاهية إذن لا علم له. ألم تر أن بِشْرا المَرِيسىّ يقول له: «يا أبا إسحاق لا تصلِّ خلف فلان جارك، وإمام مسجدكم، فإنه مُشَبِّه؛ قال: كلا، إنه قرأ بنا البارحة فى الصلاة (قل هو الله أحد) فهو يظن أن المشبه لا يقرأ «قل هو الله أحد». وهو فيما نعلم لم يقرأ كتاباً يدل على أنه جلس إلى معلم.

وإن رجلا هذه نشأته، وتلك ثقافته، يختلف شعره — غرضاً وغاية وأثراً وتأثراً ومنهاجاً — عن شعر رجل كأبى نواس قرأ القرآن، ودرس علم الكلام، وتفقه فى علوم الدين، ورُوى له الحديث، واطلع على ما تُرجم إلى عصره من علوم المتقدمين، ومع هذا تتلمذ على بشار ووالبة والحسين بن الضحاك.

لهذا نجده تصرف فى فنون الشعر جميعا، ومنها الزهد،

وأجاد فيها جميعا . أما أبو العتاهية فإنه مدح وهجا وتغزل وزهد ، وكل ما جاء فى شعره من غير هذه الفنون إنما جاءت به المناسبات النادرة التى جعلته متكلفا . أقول هذا رغم أن المتقدمين حكموا له بالتقدم ، ونحن لا يعنينا فى هذا الفصل إلا أن نتحدث عن شعره فى الزهد ، ونترك الحديث عن غيره إلى فصول أخرى .

وشعره فى الزهد وصفه القدماء بأنه (أحسنَ القول فيه ، وجَوَّده ، وأربى على كل من ذهب ذلك المذهب) ، ولقد كان تمسكه بالقول فى الزهد دافعاً لبعض الناس ، حتى أبى نواس ، على إجلاله واحترامه . فإنه رغم ما كان بينهما من مداعبات ، فإنهم يذكرون أن أبا نواس كان جالساً فى بعض طرق بغداد ، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرِّجل بين بنى هاشم وفتيانهم ، والقواد وأبنائهم ، ووجوه أهل بغداد ، وكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم ، ولا يقبض رجله إليه (ثم أقبل شيخ راكب على دابته ، فوثب إليه أبو نواس ، وأمسك الشيخ عليه حماره ، واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه) وظلا كذلك أو على ذلك وقتاً طويلا حتى تعب أبو نواس ، ورؤى يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى مستريحاً من الإعياء ، فتعجب الناس من صنع أبى نواس ، حتى إذا انصرف الشيخ سألوه : من هو هذا الذى تعظمه كل الإعظام وتجلّه كل الإجلال ؟ فقال :

(هذا إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية) فقال له السائل: (لم أجللته هذا الإجلال، وساعة منك عند الناس أكثر منه؟) قال: ويحك! لا تغفل، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوىّ وأنا أرضىّ"(١).

وأنا من الذين يرجحون أن زهد أبى العتاهية زهد مفتعل، لا يعبر عما فى نفسه، ولا يصور دخيلتها، ولم يطرق فيه إلا المعانى العامة التى يتحدث الناس بها؛ وإلا فما بال رجل هذا شعره يحرص على المال كل الحرص، ويسلك مختلف المسالك لجمعه، كما قدمنا فى بعض الحديث عن بخله؟ وإن رجلا هذا شأنه، وهذا شعره، كيف يرمى بالزندقة والخروج على الدين، إلا أن يكون هذا قبل أن ينتقل إلى بغداد. ويرمى بأنه رجل دهرىّ لا يؤمن ببعث ولا جنة ولا نار، كما ذكرنا فى بعض الحديث عن عقيدته، وإن كنا مؤمنين بأنه ما كان كذلك.

وسواء أصح اتهامه بهذا أم لم يصح، فإن شعره فى الزهد رغم أنه الكثرة الكثيرة من شعره الذى وصل إلينا، لا يصور لنا نفساً زاهدة متسخطة على الدنيا وما فيها، اقرأ قوله:

أيا عجبى! كيف يَعْصِى الإلـ ... ـهَ أم كيف يَجْحَده جاحدُ؟
ولله فى كل تَحْـريكةٍ ... وفى كل تَسْـكينة شاهد

(١) تاريخ بغداد — المجلد السادس.

وفى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه واحد

فهذه أبيات حلوة النسج لطيفة ، إلا أن معناها من المعانى البدائية الأولى التى يعرفها الخاص والعام ، إذ هو لم يزد على أنه تعجب من أن هناك ناساً يعصون الله أو ينكرونه ؛ مع أن كل شىء فى الوجود يدل عليه ، وأما إعجاب المتقدمين والمتأخرين بها ، فهو ناشىء من سهولة لفظها ، وحلاوة نسجها ، ووضوح معناها ، واتصالها بالعقيدة . ثم اقرأ قوله :

لا ترقدنَّ ، لعينك السهرُ وانظر إلى ما تصنع الغِيَرُ
أنظر إلى غِيَرٍ مصرّفة إن كان ينفع عينَك النظر
وإذا سألت فلم تجد أحداً فسل الزمان فعنده الخبَر
أنت الذى لا شىء تملكه وأحقُّ منك بمالك القَدَر

فهذه الأبيات التى حينما سمعها أبو نواس قال : (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟) — ليس فيها أكثر من أن الزمن تصاريفه عجب ، فعلى الإنسان أن ينظر فى أحداثه ، ويستيقظ له ؛ بل إن البيتين اللذين كان يرى أنهما أحب شعره إليه وهما :

ليت شعرى فإننى لستُ أدرى أىُّ يوم يكون آخرَ عمرى
وبأى البلاد يُقبَض روحى وبأى البقاع يُحفَر قبرى

ليس فيهما معنى ، ولكنهما يثيران عاطفة .

والمعانى التى تناولها فى زهدياته كلها على هذا النحو ، ويكررها فى أكثر قصائده ، فليس فيها أخيلة تسترعى نظر الباحث ، ولا صور رائعة تهز المشاعر ، وقد أقرّ هو بذلك فى بعض حديثه لابن أبى الأبيض حين قال له : (إنى أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنه لأنى أرجو أن لا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى فأحببت أن أستزيد منه ، وأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت) فقال : (اعلم أن ما قلته ردىء) قلت (وكيف ؟) قال : (لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد ، وأصحاب الحديث والفقهاء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه . فقلت : صدقت .)

وهذه أمثلة من شعره تبين صدق ما قررناه ، قال فى زوال الدنيا وهو من أحسن ما جاء له فى باب الزهد : —

لِدوا للموت وابنوا للخراب فكلكموا يصير إلى تباب
لمن نبنى ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب ؟
ألا يا موت لم أر منك بداً أتيت فما تحيف ولا تحابى

كأنك قد هجمت على مشيبى — كما هجم المشيب على شبابى
أيا دنياى ، مالى لا أرانى — أسومك منزلا إلا نبـابى ؟
ألا وأراك تبـذل يا زمانى — لى الدنيا وتسرع باسـتلابى
وإنك يا زمان لذو صروف — وإنك يا زمان لذو انقلاب
ومالى لست أحلب منك شطراً — فأحمدَ منك عاقبة الحلاب ؟
ومالى لا ألح عليـك إلا — بعثت الهم لى من كل باب ؟
أراك وإن طُلِبت بكل وجه — كحُلْم النوم أو ظِل السحاب
أو الأمسِ الذى ولّى ذهابا — وليس يعود، أو لَمْع السراب
وهذا الخَلْق منك على وفاء — وأرجُلهم جميعاً فى الركاب
وموعدُ كلِّ ذى عمل وسَعْى — بما أسدى غداً دارُ الثواب
تقلدتُ العظام من البرايا — كأنى قد أمنت من العقاب
ومهما دمتُ فى الدنيا حريصاً — فإنى لا أفيـق إلى الصواب

وقوله فى بطلان ملاهى الدنيا :

أليس قريباً كل ما هو آت — فمالى وما للشك والشبهات
أنافس فى طَلْبى الطعـام وكله — سواء إذا ما جاوز اللهوات
وأسعى لما فوق الكفاف وكلما — تزيَّدْتُ منه ازددت فى الحسرات
وأطمع فى المحْيا وعيشىَ إنما — مسالكه موصولة بممات
وللموتِ داعٍ مُسْمِعٌ غيرَ أننى — أرى الناس عن داعيه فى غفلات

فلله عقلى إن عقلى لناقص ولو تم عقلى لاغتنمت حياتى

وقوله :

إلهى لا تعذبنى فإنى مقر بالذى قد كان منى

فما لى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوتَ وحسنُ ظنى

وكم من زلة لىَ فى الخطايا وأنت علىَّ ذو فضل ومَنِّ

أجَنُّ بِزَهْرة الدنيا جنوناً وأقطع طولَ عمرى بالتمنى

ولو أنى صَدَقْت الزهدَ فيها قلبت لأهلها ظهر المجن

يظن الناس بى خيراً وإنى لَشَرُّ الخلق إن لم تعف عنى

وقوله :

الموتُ بين الخلقِ مشتَرَكْ لا سوقةٌ يبقَى ولا ملِك

ماضرَّ أصحابَ القليل وما أغنى عن الأملاك ماملكوا

من هذا يتبين أنه تناول معانى كلها تدور حول ذم الدنيا ، والتنفير منها ، وغرورها و بطلان ملاهيها ، وكدر عيشها ، وزوالها ، و إيثار الآخرة عليها ، وصروف الدهر وتقلباته ، والقبور والحشر ، والموت ووروده وضرباته وسكراته ؛ ويندب الهالكين من أصحابه ، ويذم الآثمين والبخلاء وطباع الناس ، ويمدح القانعين ، وغير ذلك من الموضوعات التى نراها أشبه بالخطب المنبرية فى العصور الوسطى ، إلا أن هؤلاء الخطباء كانوا يصوغون خطبهم فى أسلوب مهلهل

النسج ، منوع الخلقان ، مشكل الألوان ، عليه غشاء من السجع البارد ، لا يحجبه ولا يداريه ، وأما أبو العتاهية فقد صاغ هذه الخطب فى كلام حلو النسج ، سهل مَنْغوم . ولأمر مّا قدم الراهب موعظته إلى العابد من هذا الشعر . حدث عمر بن شَبَّة قال : مرّ عابد براهب فى صومعه ، فقال له : عظنى ، فقال : أعظك وعليكم نزل القرآن ، ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم قريب العهد بكم ! قلت : نعم ، قال : فاتعظ ببيت من شعر شاعركم أبى العتاهية حين يقول :

تجرَّدْ من الدنيا فإنك إنما وقعت إلى الدنيا وأنت مجرد

ولا يدفع ذلك ما شهد له به المتقدمون بأبيات سمعوها فاستجادوها فحكموا له من أجلها بالتقدم والفوق على أبى نواس وغير أبى نواس ، بل لا يدفع ذلك حكم أبى نواس نفسه لأبى العتاهية بالتقدم عليه فى زهدياته ، اللهم إلا إذا سلمنا بأن أكثر شعر أبى العتاهية ضاع ، فلم يصل إلينا منه إلا القليل ، ولكنا نستطيع أن نقول أيضاً : إنه من غير المعقول أن يضيع الجيد الذى رفع صاحبنا فوق أقدار الشعراء ، ويبقى غير الجيد الذى يجعل صاحبه لا يعدو أن يكون شاعراً عادياً من شعراء عصره ؛ والذى لا شك فيه أن أكثر ما ضاع من شعره إنما هو القول فى الكوفة أولا ، فإن ما وصل إلينا نزر يسير ، لا يصور لنا حياته هناك إلا تصويراً فيه

كثيرجداً من الاهتمام ، ولعله لم يقل هناك شيئاً فى الزهد إلاماعسى أن يجىء عفواً فى ثنايا كلام آخر ، ثم المقول فى بغداد فى مدح المهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون ؛ فإن الموجود منه قلة قليلة جداً لا تزيد كثيراً على ما روى من شعره فى الكوفة مع أنه ظل نصف قرن أو يزيد يمدح هؤلاء الخلفاء ويمدح أمراءهم وقوادهم وولاتهم رغبة فى نوال بعضهم ، ومداراة لبعضهم ، أو توسلا بالمديح إلى شىء آخر غير النوال وغير المداراة.

وليس معنى هذا أن كل شعر أبى العتاهية فى الزهد خطب منبرية منظومة ، ولكنا نحكم على الأكثر ، ولا نحكم على النادر ، فقد يكون فى ثنايا بعض القصائد أبيات نحمدها له ، وندخلها فى عداد الشعر الجيد ؛ ومن ذلك قوله(١) :

أضحت قبورهم من بعد عزهمو عفّى عليها الصَّبا والحَرْجَفُ(٢) الشَّمَلُ
لا يدفعون هواماً عن وجوههمو كأنهم خشب بالقاع منجدل

فهو فى هذين البيتين يصور لنا قبوراً احتوت قوماً نعموا بهذه الدنيا زماناً ، ثم انقضت أيامهم ، ورقدوا فى مكان عفّى عليه الصبا

---

(١) (الأغانى ج ٩) (٢) الحرجف كجعفر . الريح الباردة الشديدة الهبوب ، مع يبس : قال الفرزدق :

إذا اغبر آفاق السماء وهتكت ستور بيوت الحى نكباء حرجف

والشمل : ريح مهبها بين مطلع الشمس وبنات نعش ، وهى المعروفة فى مصر بالمريسى ، ولا تكاد تهب ليلا . « تاج العروس ج ٧ »

ما عنى ، وصاروا فى حالة من العجز تجعلهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن وجوههم ما عسى أن يسقط عليها من الهوام ، وهذا المعنى وإن كان يشبه معانى العامة إلا أنه كون منه صورة هى أدخل فى باب الشعر منها فى باب خطب المنابر . ولقد أعجب به المتقدمون إعجاباً ، وتغنوا به ، وأحدثوا فيه لحنا ؛ وممن تغنوا بهذا الكلام الخليفة العباسى الواثق ، فقد روى صاحب الأغانى حديثاً مرفوعاً إلى حماد بن إسحاق عن أبيه قال : « دخلت يوماً دار الواثق بغير إذن إلى موضع أمر أن أدخله إذا كان جالسا ، فسمعت صوت عود من بيت ، وترنماً لم أسمع أحسن منه قط ، فأطلع خادم رأسه ثم رده ، وصاح بى ، فدخلت فإذا الواثق ، فقال : (أى شىء سمعت) فقلت : الطلاق لازم لى ، وكل مملوك لى حرٌّ ، لقد سمعت ما لم أسمع مثله قط حُسْناً . فضحك وقال : وما هو ؟ إنما هذه فضلة أدب وعلم مدحه الأوائل ، واشتهاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمهم ، والتابعون بعدهم ، وكثر فى حرم الله ، ومهاجرى رسول الله . أتحب أن تسمعه منى ؟ قلت : إى والذى شرفنى بخطابك ، وجميل رأيك ، فقال : يا غلام ، هات العود وأعط إسحاق رطلا ، فدفع الرطل إلىّ ، وضرب وغنى فى شعر لأبى العتاهية بلحن صنعه فيه ، ثم ذكر البيتين ، وغناها له مرة وثانية ، وثالثة .

ومن شعره الذى أجاد فيه أيضاً قوله :

يا صاحبَ الروح ذى الأنفاس فى البدن بين النهار و بين الليل مرتهن
لقلّما يتخطاك اختلافهما حتى يُفرّق بين الروح والبدن
لتجذبنِّى يد الدنيا بقوتها إلى المنايا و إن نازعْتها رسَنى
لله دنيا أناسٍ دائبين لها قد ارْتَعَوْا فى رياض الغَىِّ والفِتَن
كسائمات رِتاع تبتغى سِمَنا وحتفُها، لو درت، فى ذلك السمن

وقوله للرشيد :

لا تأمن الموت فى طَرْف ولا نَفَس إذا تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدةٌ لكل مُدّرع منها ومُتّرِس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإن خير هذه الأبيات آخرها ، و يجعلها جيدةً المقامُ الذى قيلت فيه ؛ وهو أن الرشيد قال له يوماً : عظنى ، فقال له : أخافُك ، فقال له : أنت آمن ، فأنشده الأبيات وهو آمن . وقوله :

نَغّص الموت كل لذة عيش يالقومى للموت، ما أوحاه !
عجباً ! إنه إذا مات ميت صدّ عنه حبيبه وجفاه
حيثما وجه امرؤ ليفوت الـ ـموت فالموت واقف بحذاه

إنما الشيب لابن آدم ناع قام فى عارضيه ثم نعاه

من تمنى المنى فأغرق فيها مات من قبل أن ينال مناه

ما أذل المقل فى أعين النا س لإقلاله وما أقماه

إنما تنظر العيون من النا س إلى من ترجوه أو تخشاه

بخله وشحه (1)

إذا وصف إنسان أمامك بالبخل ، كان أول مايتبادر إلى ذهنك البخل المالى ، مع أن الإنسان ، كما يكون بخيلا بماله ، حريصاً على جمعه — يكون كذلك شحيحاً بعلمه، شحيحاً بنصحه، شحيحاً بمعروفه ، شحيحاً بما يطبعه الله عليه من كياسة وظرف ؛ ولكن المال يقوم عليه أول سبب من أسباب الحياة ، وتقاس به إلى حد بعيد أقدار الرجال عند العامة ، حتى قالوا: من لامال له لاحسب له ، ومن قلّ ماله فهو غير مرغوب فيه ، ولا موهوب منه ، ولا قدر

---

(1) جمعنا فى هذا العنوان بين البخل والشح ، وإن بعض العلماء يفرقون بينهما ، فيعرفون البخيل بأنه هو الذى يمتنع عن إخراج ما حصل عنده ، ويذكرون أن الشحيح هو الحريص على تحصيل ما ليس عنده ، وقيل : إن الشح هو البخل مع الحرص ، ولذلك كان أشد منه فى الذم . قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » فقد أدخل النبى صلى الله عليه وسلم الشح تحت هذا الوعيد والذم الشديد الذى فيه هلاك الدنيا والآخرة . ومثله ما رواه النسائى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى رجل مسلم أبدا ، ولا يجتمع شح وإيمان فى قلب رجل مسلم أبدا » (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جزء ٤ ص ٢٩٣) .

لإنسان لاتتعلق القلوب منه برغبة أو رهبـة . وأنت إن أحسنت القيام عليــه عزَّ به قلبك ، وذلَّ قلب عدوك ، وكبت حسادك ، وتحدث سياجاً تصون به عرضك ، وتحمى مروءتك ، وجمعت قلوب ذوى الرحم حولك ، والتمست به الزلفى إلى ربك ، وكان سلماً تعرج فيه إلى المعالى ، تتفتح لك أبوابها ، وتتلقاك بالبشر أسبابهـا تغفر زلاتك ، وتقضى حاجاتك ؛ إن طلعت على الناس فطالعك ميمون ، والسعد فى ركابك إن ركبت ، وفى مجلسك إن جلست ، صوتك عذب ، ولحنك حاو ، ولفظك جميــل ، وقولك مسموع ، وإشارتك أمر واجب الطاعة ، وويل لأم من لم يسارع إليها ، قال: عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له كرم وخير
يباعده الغريب وتزدريه ... حليلته وينهره الصــغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطـير
قليل ذنبــه والذنب جم ... ولكن للغنى ربٌّ غفور

لذلك اعتز بعض الناس بالمال وما هو منه بسبب، كالعقار ونحوه وبالغوا فى ذلك الاعتزاز حتى خرجوا عن المألوف ، وغبروا على ذلك الزمن الذى عاشوه فخرجوا من مالهم خروجهم من الدنيا ، وشقوا

به ، وبكثرة التفكير فيه ، قال الحسن البصرى : لم أر أشقى بماله من البخيل لأنه فى الدنيا يهتم بجمعه ، وفى الآخرة يحاسب على منعه ، غير آمن فى الدنيا من همه ، ولا ناج فى الآخرة من إثمه ، عيشه فى الدنيا عيش الفقراء ، وحسابه فى الآخرة حساب الأغنياء .

ويغلب على البخلاء أنهم يكونون أول أمرهم فقراء، فإذا وقع لهم القرش ضنوا به على أنفسهم حتى وقع لهم القرش الثانى فأضافوه إلى الأول، فيغريهم ذلك بمتابعة الجمع ، ومواصلة المنع ، حتى يتيسر لهم منه ثروة .

سأل رجل مرة ، سهل بن هارون فقال له : هبنى مالا مرزئة عليك فيه ، قال : وما ذاك ؟ قال : درهم واحد ، فقال سهل : يابن أخى ؛ هونت الدرهم وهو طابع الله فى أرضه ، والدرهم ويحك ، عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دية المسلم ؛ ألا ترى يابن أخى كيف انتهى الدرهم الذى هونته ؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم ؟ ولقد كان إذا وقع له درهم ، يقول له : بأبى أنت وأمى ، كم من أرض قطعت ، وكيس خرقت ! وكم من خامل رفعت ! وكم من رفيع أخملت ! لك عندى ألا تعرى ولا تضحى ؛ ثم يلقيه فى كيسه ويقول : اسكن على اسم الله ، لا تزول عنه ، ولا تنزعج منه .

***

وكتب الأدب مليئة بأخبار البخلاء ونوادرهم ، والبخلاء كثيرون فى كل عصر وفى كل مكان ، ولا يمكن أن يخلو منهم زمان مادام ناس يحبون المال ، ويستكثرون منه ما وسعهم الاستكثار ، ويحرصون عليه كما يحرصون على أرواحهم . ولقد اهتم الناس بأخبار البخلاء ، يروونها للتندّر بها ، أو للعظة والاعتبار ، ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، أو يدونها المؤلفون فى كتبهم ؛ فقد ألف الجاحظ كتابا كاملا ، سماه البخلاء ، جمع فيه من نوادرهم وطرائفهم الشىء الكثير . وعدوا من البخلاء : عبد الملك بن مروان ، وهشام بن عبد الملك ، وأبا جعفر المنصور ، ومحمد بن الجهم ، ومروان بن أبى حفصة الشاعر المشهور ، وسهل بن هارون صاحب الرسالة المعروفة ، والحطيئة ، وحميداً الأرقط ، وأبا الأسود الدولى ، وخالد بن صفوان وأُحَيحة بن الجلاح ، وعمرو بن يزيد الأسدى ، وغيرهم ممن ترون أخبار بخلهم منتشرة فى كتب الأدب والتاريخ .

وإن أكثرهم لا يذكرون أبا العتاهية فى عداد البخلاء ، ولست أدرى لماذا ينسونه ، وإن له من النوادر والأخبار المحكية ، ما يكاد لا يدخل فى دائرة المعقول ؟

ومن عجيب أمر أبى العتاهية أن ما كان عليه من الخناث وتكسر ، وغشيان مجالس الظرفاء والمتندرين ، ثم ما آل إليه أمره

من تزهد وتقشف — يخلق منه رجلا شحيحاً ؛ لأن الحالة الأولى لا تكون إلا فى متلاف ، والثانية لاتكون إلا فى كارهٍ للمال وجمعه ولكنه مع ذلك ظل ممسكا حريصاً متقفع الأطراف ، مغلول اليدين طول حياته ، وقد ورد فى ديوانه وغير ديوانه من كتب الأدب والتراجم غير قليل من الشعر الذى يذم فيه البخل ، ويذكر ما يجره على البخيل من ويلات ، ويبغض إلى الناس المال ، والتكالب على جمعه ، ويزهدهم فيه ويؤكد لهم أن الغنى إنما هو غنى النفس لاغنى المال ، ويعجب من الحريص يكد فى طلب المال ، ويلهو عن طلب الآخرة ، ويمدح القنوع والراضى بما قسم الله له .

قال :

والرزق قد فرغ الإله لنا ... منه ، ونحن بجمعه نعنى !

عجباً عجبت لطالب ذهباً ... يفنى ويرفض كل مايبقى !

وقال :

أَتَجْمَعُ مالا لا تقدِّم بعضَه ... لنفسك ذخراً ؟ إن ذا لَسُقوط

نصيبك مما صرت تجمع دائماً ... رداءان من قِبْطيّة وحَنُوط

كأنك قد جُهِّزتَ تُهدَى إلى البِلَى ... لنفسك فى أيدى الرجال أطيط[1]

---

(١) الأطيط : الجوع ، وصوت الرجل والإبل من ثقلها ، وصوت الظهر والجوف من الجوع .

وقال :

الحرص لُؤْمٌ ومثلُه الطمعُ ... ما اجتمع الحرص قط والوَرَعُ
لو قنع الناس بالكفاف إذاً ... لا تسعوا فى الذى به قنعوا
للمرء فيما يقيمه سَعَةٌ ... لكنه ما يريد ما يسع

وقال :

شدة الحرص ما علمت وضاعة ... وعناء وفاقة وضراعة
إنما الراحة المريحة فى اليـ ... أس من الناس، والغنى فى القناعة(١)

وأبو العتاهية الذى يقول هذا الشعر بخيل أشد البخل على نفسه وعياله وخدمه ، والمحتاجين عامة ، وكان لا يخرج زكاة ماله ، ويعتبر ماينفقه على أولاده زكاة تجزىء عنه ، فقيل له فى ذلك : إن الزكاة لاتكون إلا للفقراء والمساكين ، فقال : لو انقطعت عن عيالى زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم ، وكيف يخرج الزكاة من ماله لمستحقيها وقد كان مع وفرة ماله يأكل خبزاً يابساً من رقاق فطير ، ويغمسه فى لبن ، ثم يخرجه ولم يتعلق منه بقليل ولا كثير ليبوستة !؟ ولذلك قالوا « أبو العتاهية يتأدم بلا شىء » .

---

(١) الديوان صفحات ١٤ و١٧ و٢٤ و ٢٦ و٣٠ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٤٣ و ٤٦ و ٤٩ و ٦٢ و٧٣ و٨٠ و٨٢ و ٩٣ و ٩٧ وغير ذلك من الصفحات .

حدث محمد بن عيسى المخزومي قال : كان لأبى العتاهية جار يلتقط النوي ، ضعيف سيء الحال ، متجمل عليه ثياب ، فكان يمرّ بأبى العتاهية طرفى النهار ، فيقول أبو العتاهية : اللهم أغنه عما هو بسبيله ، شيخ ضعيف سيء الحال ، عليه ثياب متجمل ، اللهم أعنه ، اصنع له ، بارك فيه . فبقى على هذا نحواً من عشرين سنة ، إلى أن مات الشيخ ، ووالله إن تصدق عليه بدرهم ولا دانق قط ، وما زاد على الدعاء شيئا ؛ فقلت له يوما : يا أبا إسحاق ؛ إنى أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ ، وتزعم أنه فقير مقلّ ، فلم لا تتصدق عليه بشىء ؟ فقال : أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة أُخِرُ(١) كسب العبد ، و إن فى الدعاء لخيراً كثيرا (٢).

وذكر محمد بن عيسى المخزومي أيضاً ، أنه كان لأبى العتاهية خادم أسود طويل كأنه محراك أتون ، وكان يجرى عليه فى كل يوم رغيفين ، فجاءنى الخادم يوماً فقال لى : والله ما أشبع ، فقلت : وكيف ذاك ؟ قال لأنى ما أفتر عن الكد ، ويجرى على رغيفين بغير إدام ، فإن رأيت أن تكلمه حتى يزيد رغيفاً فتؤجر به ؟ فوعدته بذلك ، فلما جلست معه مرّ بنا الخادم ، فكرهت إعلانه أن شكا لى ذلك ،

---

(١) أخر : وزان كتف ، أرذله وأدناه ، وبالمد : آخر مايكتسب به المرء عند العجز عن الكسب — لسان العرب جـ ٥ (٢) الديوان والأغانى جـ ٤

وقلت له : يا أبا إسحاق ، كم تجرى على هذا الخـادم فى كل يوم ؟ قال : رغيفين ، فقلت له : لا يكفيانه ، قال : من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير ، وكل من أعطى نفسه شهوتها هلك ، وهذا خادم يدخل إلى حرمى و بناتى ، فإن لم أعوده القناعة والاقتصاد أهلكنى وأهلك عيالى ومالى . فمات الخادم بعد ذلك فكفنه فى إزار وفراش له خَلق ، فقلت له : سبحان الله ! خادم قديم الحرمة ، طويل الخدمة ، واجب الحق ، تكفنه فى خَلَق ! و إنما يكفيك له كفن بدينار ، فقال : إنه يصير إلى البلى ، والحى أولى بالجديد من الميت ، فقلت له : يرحمك الله يا أبا إسحاق ، فقد عوّدته الاقتصاد حياً وميتا .

* * *

عرف أمر أبى العتاهية ، فكان ظرفاء بغداد يتندرون عليه ، و يسخرون منه ، و يتفكهون بنوادره ، وقف عليه ذات يوم سائل عيار ظريف ، وكان معه بعض الناس ، فسأله شيئاً ، فقال : صنع الله لك ، فألحف السائل ، فلم يزد عن قوله : صنع الله لك ، فغضب وقال له : ألست القائل :

كلُّ حَىٍّ عند ميتَتِه حظُّه من ماله الكفَن

فبالله عليك أتريد أن تمد مالك كله لثمن كفنك ؟ قال : لا . قال : فبالله كم قدرت لكفنك ؟ قال : خمسة دنانير ، قال : فهى إذاً

حظك من مالك كله ، قال : نعم ، قال: فتصدق عليّ من غير حظك بدرهم واحـــد ، قال : لو تصدقت عليك لكان حظى ، قال فاعمل على أن ديناراً من الخمسة الدنانير وضيعة قيراط ، وادفع إلىّ قيراطاً واحدا ؛ وإلا فواحدة أخرى ، قال : وما هى ؟ قال : القبور تحفر بثلاثة دراهم ، فأعطنى درهما ، وأقيم لك كفيلا بأنى أحفر لك قبرك به متى مت ، وتربح درهمين لم يكونا فى حياتك ، فإن لم أحفر رددته على ورثتك ، أو رده كفيلى عليهم ، فخجل أبو العتاهية وقال : أغرب لعنك الله وغضب عليك ، فضحك جميع من حضر ، ومر السائل يضحك ، فالتفت إليهم أبو العتـاهية وقال : من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة ، فقالوا له : ومن حرمها ؟ ومتى حرمت ؟ فما رأينا أحداً ادعى أن الصدقة حرمت قبله ولا بعده .

وهذا الشاعر الذى تجد تسعة أعشار ديوانه فى ذم الدنيا ، وذم من يتكالبون عليها ، ويحرصون على جمع المـال ، كان يخونه الطبع أحياناً ويضع شعراً يذكر فيه أن الناس ليسوا إلا مع الدنيا ، فمن أقبلت عليهم أقبلوا عليه ، ومن انقلبت عليهم انقلبوا عليه . ومنه قوله :

إن للخـــير لَرَسْماً بيننا طَبَع الله عليه ما طَبَـع
قد بلونا الناس فى أخلاقهم فرأيناهم لِذى المـال تبع
وحبيب الناس من أطمعهم إنما الناس جميعاً بالطمع

أحمَـدُ الله على تدبـيره قدَّرَ الرزق فأعطى ومنع
سمت نفسى ورعاً تصدقه فنهاها النقص عن ذاك الورع
ولنفسى حين تعطى فرح واضطرابٌ عند منع وجزع

وهو حين يقول هذا لا يأخذ على الناس فعلهم ، ولا يعيبهم به ، بل يحذر الأغنياء أن يسرفوا فى أموالهم ، خشية أن تفنى أموالهم قبل أن تفنى أعمـارهم فيعانوا من بأس الفقر ما يكون وبالا عليهم وشراً دائماً لهم ، قال :

ولربما محق الـكثير وربمـا كثر القليل إلى القليل إذا اجتمع

وهو إذ يقول ذلك ينسى أن الغنى الحريص فقير دائم الفقر ، بل أشنع حالا من الفقير ، لأنه حرم نفسه التمتع بمال ستهلكه مهالكه . فهو سيتركه قريباً أو بعيداً لوارث يتمتع به ، أو يتركه حتى يعصف به حادث ، فيبيد وهو يتحسر عليه .

قال ثمامة بن أشرس : أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المـال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق و إلا استهلكته مهالكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا ، فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أولبست

فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له : أتؤمن بأن هـذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه الحق ؟ قال : نعم ، قلت : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك،ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ماقلت لهو الحق، ولكنى أخاف الفقر ، والحاجة إلى الناس؛ فقلت : وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع شحيح على نفسك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيـد ؟ فترك جواب كلامى كله ثم قال لى : والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال لى هذا القول ، أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته فأمسكت عنه ، وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صـدره للإسلام .

ولعله يلتمس لنفسه عذراً فى الحرص على المال ، لأنه يرى أن أفضل الزهد لا يكون إلا عن جدة ، كما أن أفضل العفو لا يكون إلا عند المقدرة ، ومن كان زاهداً وليس ذا جدة فلا فضل لزهده ، إذ قد يكون ذلك عن قصر يد ، وسوء حال،وكذلك من يعفو وليس ذا مقدرة ، إذ قد يكون ذلك عن ضعف وعجز .

وأفضل الزهد زهد كان عن جدة وأفضل العفو عفو عند مقدرة

فأبو العتاهية لذلك يجمع المال ، ويجد فى جمعه ؛ يمدح الخلفاء :

المهدى ، والهادى ، والرشيد ، والمأمون ، ويمدح غير الخلفاء ، كالفضل ابن الربيع ، وعمرو بن العلاء ، ويزيد بن مزيد ويغريهم بإجزال صلته ، فيقول لعمرو بن العلاء :

إن المطايا تَشْتَكيك لأنها   قَطَعَت إليك سَباسباً ورمالا
فإذا وَرَدْن بنا وردن مُخِفَّةً   وإذا صَدَرْن بنا صدرن ثِقالا

فيصله عمرو بسبعين ألف درهم ، فيحسده الشعراء ، فيتعصب له الأمير ابن العلاء ، ويأذن لهم بالمثول بين يديه ، ويؤنبهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا فيه ما قال أبو العتاهية . ثم يقول فى يزيد ابن مزيد مادحا :

فما آفة الأبطال غيرك فى الوغى   وما آفة الأموال غير حِبائكا

فيصله، كما يقولون، بعشرة آلاف درهم ودابة بسرجها ولجامها .

ويروون أنه حج فى عام ، فضرب الخليفة السكة ، فأراد أن يكتنز منها شيئاً يمتع به نظره فقال :

خَبَّرونى أن من ضَرْب السنة   جُدُداً بيضاً وحُمْراً حَسَنة
لم أكن أعهَدُها فيما مضى   مثل ما كنت أرى كلَّ سنة

فبعث إليه الخليفة بألف دينار جدد ، وبعشرة آلاف درهم جدد أيضا .

وكان يدعى أنه بائس، ويتحسر على حاله ، ويستعطف الناس: حدث

الصولى عن ابن أبى العتاهية قال : دخل أبى على الهادى ، فأنشده :

يا أمين الله مالى لست أدرى اليوم مالى
لم أنل منك الذى قد نال غيرى من نوال
تبذل الحق وتعطى عن يمين وشمال
وأنا البائس لا تنظر فى رقة حالى

قال : فأمر المعلى الخازن أن يعطيه عشرة آلاف درهم ، فلما أبى الخازن إعطاءه احتال عليه ، ووسط الناس لديه ، حتى ينفذها إليه.

* * *

هكذا كان يفعل أبو العتاهية لجمع المال ، وكان لا ينفق منه ولا يزكى فيه ، مدعياً الزهد بل أفضل الزهد ، ومن كثرة ما لام الناس أبا العتاهية ، بخلهم جميعاً فى شعره ، وأخلى الناس كلهم من جواد واحد ، حتى لا يعيره أحد بما هو فيه ، قال :

إن كنت متخذاً خليلا فتنق وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً فى الود فابغ به بديلا
فلربما سئل البخيـ ل الشىء لا يسوى فتيلا
فيقول لا أجد السبيـ ل إليه يكره أن ينيلا
فلذاك لا جعل الإلـ ـه له إلى خير سبيلا
فاضرب بطرفك حيث شئـ ـت فلن ترى إلا بخيلا

وأبو العتاهية لم يبخّل النـاس فقط . بل كان على بخله الشديد يعير غيره ، و يقدح فيه و يشهر به ، فيرميه بما هو فيـه ، فهو الذى قال فى سلم الخاسر :

تعالى الله ياسلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

فلما أنشد المـأمون هذا البيت ، قال : إن الحرص لمفسد للدين والمروءة ، والله ماعرفت من رجل قط حرصاً ولا شحاً فرأيت فيـه مصطنعاً ، فبلغ ذلك سلما . فقال : و يلى على المخنث الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها وعبأ البدر فى بيته ، ثم تزهد مراءاة ونفاقا . فأخذ يهتف بى إذا تصديت للطلب ، ولـكن أبا العتاهية إذ قال هذا الشعر لم يفلت من الجماز بن أخت سلم الذى سمعه ينشد فى الزهد ، عند قُثَم بن جعفر بن سـليمان ، فأنشأ يقول ، يريد أبا العتاهية :

ما أقبح التزهيد من واعظ يُزَهِّد النـاسَ ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجد
يخـاف أن تنفد أرزاقه والرزق عنـد الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

عند ذلك سُقط فى يد أبى العتاهية ، واعتذر للجماز ، واستغفر الله له ولخاله .

غـــزله

يكثر الأدباء المحدثون الحديث عن بشار وأبى نواس والحسين ابن الضحاك ووالبة بن الحباب وغـيرهم ممن جرى على مذهبهم فى نظم الشعر وقرضه ، ويغفلون الحديث عن أبى العتاهية وعمر بن الفارض وغيرهما ممن جرى على مذهبهما فى نظم الشعر وقرضه .

ولعل ذلك راجع إلى الكاتب أو الأديب: همه الأول أن تسير كتابته وأدبه بين الناس ، وأن يكثر قراؤه : فهو يضع نصب عينيه رغبة القارئين وميولهم ، ويحاول أن يشبع هذه الرغبة وذلك الميل ؛ وجمهرة القارئين شـبان يجرى فى عروقهم دم الشباب ، أو شيوخ متصابون أو يافعون ، تتفتح أمامهم الحياة على الصورة التى يراهـا الشـباب .

وهذا النوع من الرغبـة له اتجـاه خاص ، حبيب إلى النفس ، يشبها ويغريها ، ويحرك فيها معانى خاصة ، ويرسم لهـا الحياة رسماً خاصاً ، ويلبسها ثوباً خالباً براقاً .

رأى الكتاب والمتأدبون فى العصر الحديث هذا الاتجاه فسايروه

ويحثوا فى الميراث الأدبى القديم الذى خلفه لنا المتقدمون ، لعلهم يجدون منه مادة يخرجونها للناس ، فتنال إعجابهم ، بأنها تساير ميولهم ، فوجدوا مادة خصبة فيما تركه لهم أبو نواس و بشار وغيرهما .

ووجدوا المتقدمين أيضاً ، ولا سيما صاحب الأغانى ، معنيين عناية كبيرة بآثار هؤلاء فحفظوا لهم منها مقداراً جعلوه زاداً لهم ، فقرءوه ووعوه وأعجبوا به ، ثم عرضوه على الناس فى صور اختلفت جمالا وحسناً باختلاف الباحثين ، وباختلاف قدرتهم على تعرف الصور التى تعجب القارئين مع اختلاف الأسنان والبيئات والميول والطباع .

فلا عجب إذاً أن نرى أبا نواس مثلا أسعد حظاً فى عصرنا هذا منه فى أى عصر آخر ، فتؤلف فيه الكتب من كبار الأدباء وصغارهم وتنشر على الناس ، و يقبل الناس على قراءتها ، و يشبعون رغباتهم منها ، ويضرمون عواطفهم ، ويزيدونها شبوباً . أما أبو العتاهية وأمثاله ممن عرف الكتاب والأدباء أن لهم نحواً خاصاً فى الشعر ، كان عماده التزهيد فى الدنيا ، والتنفير من ملاذها ، والترغيب فى الآخرة ، والعمل للجنة ، والتخويف من النار ، وغير ذلك من المسائل الثقيلة على النفس التى تريد أن تغتنم الفرص ، وأن تتمتع بالحياة ما وسعها التمتع ، كل هذا جعل الباحثين يتجنبون البحث

فى أبى العتاهية ، على ماله من قدر بين الشعراء ، و يباعدون بينهم وبينه ، فى حين أنه كان له فى حياته خطر لا يقل عن خطر أبى نواس معاصره ومجالسه ، ومنشد الشعر معه ، وطالب العطاء فى رحابه .

واشتهار أبى العتاهية بالزهد جعل الباحثين لا يعنون بأنه كان له جانب من حياته يشبه من بعض الوجوه حياة بشار وأبى نواس ، ولا فرق بينه وبينهما من هذه الناحية إلا أنه أحب وأفرط فى حبه ، وأنطق لسانه بشعر من أحسن شعر الغزل وأجمله وأصدقه ؛ دفعته حرارة الحب ، ومرح الشباب ، ودل الجمال ، وجمال الدلال — إلى أن يقول فقال .

أما بشار وأبو نواس وأمثالهما فما أَحَبُّوا ، وما اكتوت بنار الحب قلوبهم ، ولكنهم عبثوا فأجادوا العبث ، وتخنثوا فأجادوا التخنث ، وتحللوا من جلال الدين تحللا تختلف درجاته باختلاف نفوسهم ، وقوة وازعهم ، ومقدار قربهم أو بعدهم من الخلفاء ، فمزجوا الجد بالهزل والمجانة والخلاعة ، حتى لقد بالغ بعضهم فى ذلك مبالغة جعلته مضغة الأفواه حياً وميتاً .

أما المرأة التى أحبها أبو العتاهية ، وتعلق بها قلبه ، ولازمه خيالها فى غدوه ورواحه ، وفى يقظته ومنامه — فهى عُتْبة جارية ريطة بنت أبى العباس السفاح ، ثم جارية الخيزران أم الرشيد .

تربت عتبة فى بيت الخلافة الهاشمية ، وصاحبت ريطة بنت أميرالمؤمنين السفاح ، ثم الخيزران زوجة المهدى ، وأم الهادى والرشيد ؛ فهى فى دار الخلافة و بيت النعيم ، ظلت فى أحضانه عصر خمسة خلفاء — أبو العباس السفاح والد ريطة ، وأبو جعفر المنصور ، والمهدى صاحب الخيزران والهادى والرشيد ابنا الخيزران — فكانت مختصة بأم خليفتين ، وزوج خليفة ، و بنت خليفة ، تخدم ريطة والخيزران ، تقضى حاجاتهما ، فتسبغان عليها من عطفهما ، وتحبوانها ببرهما وخيرهما .

ولولا أنها كانت منهما كما تشتهيان ، وهى خادمتهما وجاريتهما لما استبقياها فى خدمتهما هذا الوقت الطويل ، ولما عطفتا عليها قلوب الخلفاء أنفسهم ، فكانوا يرعونها ، و يسألون عنها و يبرونها ، و يدفعون عنها ماعسى أن يلحقها من عار شعر أبى العتاهية الذى فتن بها فتونا .

وحديث أبى العتاهية مع عتبة لم تعن به كتب الأدب كثيراً ، ولم تحفل به كتب التاريخ ، وكان أجدر بصاحب الأغانى أن يعتنى به ، وأن يسوق لها من الأخبار مثل الذى ساق لغيرها من المغنيات والجوارى . ومع ذلك نجده يذكر فى صدر ترجمة أبى العتاهية وفى نهايتها أنه لن يتعرض لأخباره مع عتبة لأنها طويلة وكثيرة ، فإذا فعل ذلك أنساه الاستطراد الغاية التى يقصد إليها ، وهى المائة

الصوت المختارة ، ولكنه يفرد لأبى العتاهية مع عتبة باباً خاصاً ، يتحدث فيه عنهما ما وسعه الحديث — ونحن نقلب الطرف فى صفحات الأغانى كلها لعلنا نجد المؤلف وفى بما وعد به من الحديث عن عتبة وأبى العتاهية ، أو لعلنا نجده وفى ببعض ماوعد به، فلا نكاد نجد شيئاً .

ولعل هذا هوالذى صرف المحدثين عن التحدث عن أبى العتاهية بمثل ماتحدثوا عن غيره من شعراء عصره ، واكتفوا أن يقولوا عنه : إنه كانت له صلة بجارية اسمها عتبة، وأرجح أنه لولا القصة المشهورة بين أبى العتاهية و بشار ، والتى وقعت فى مجلس المهدى بشأن قول أبى العتاهية :

ألا ما لسيدتى مالها أدلا فأحمل إدلالها

لما أشير إلى علاقه أبى العتاهية وعتبة .

* * *

ولعل أبا العتاهية عرف عتبة أول ما عرفها زمن المهدى ، وهو فى ريعان الشباب ، وميعة الصبا، ولعلى أرجح أنها هى أيضاً كانت تلاحقه فى سنه . فهى مثله فى ربيع العمر، مكتملة إذ كان يقطع ثلاثة عقود من عمره إلى أوائل خلافة المهدى ، وهى فيما نرجّح تقطع

مثل هذا العمر في أيسر الاحتمالات ، لأنها كانت تخدم في دار الخلافة قبل ذلك بكثير .

ولقد علقها أول نزوله ببغداد ؛ فقد حدَّث أبو شعيب أحمد بن يزيد أنه قال لأبي العتاهية : يا أبا إسحاق ؛ حدثني بقصتك مع عتبة ، فقال لي أحدثك : قدمنا من الكوفة ثلاثة فتيان شباباً أدباء ، وليس ببغداد من نقصده ، فنزلنا غرفة بالقرب من الجسر ، فكنا نبكر فنجلس في المجلس الذي بباب الجسر في كل غداة ، فمرت بنا يوماً امرأة راكبة، معها خدم سودان ، فقلنا : من هذه ؟ قالوا خالصة. فقال أحدنا : قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعراً ، فأعناه عليه ؛ ثم لم تلبث أن مرت أخرى راكبة ، معها خدم بيضان ، فقلنا : من هذه ؟ فقالوا عتبة ، فقلت : قد عشقت عتبة ؛ فلم نزل كذلك في كل يوم إلى أن التأمت لنا أشعار كثيرة ، فدفع صاحبي بشعره إلى خالصة ، ودفعت أنا بشعري إلى عتبة ، وألححنا إلحاحاً شديداً ؛ فمرة تقبل أشعارنا ، ومرة نطرد ، إلى أن جدّوا في طردنا ، فجلست عتبة يوماً في أصحاب الجوهر ، ومضيت فلبست ثياب راهب ، ودفعت ثيابي إلى إنسان كان معي ، وسألت عن رجل كبير من أهل السوق، فدللت على شيخ صائغ ، جئت إليه فقلت: إني رغبت في الإسلام على يدي هذه المرأة ، فقام معي وجمع جماعة من أهل

السوق ، وجاءها فقال : إن الله قد ساق إليك أجراً ، هذا راهب قد رغب فى الإسلام على يديك ، فقالت : هاتوه ، فدنوت منها ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقطعت الزنار ودنوت ، فقبلت يدها ؛ فلما فعلت ذلك ، رفعت البرنس فعرفتنى ، فقالت : نحُّوه ، لعنه الله ! فقالوا : لا تلعنيه فقد أسلم ، فقالت : إنما فعلت ذلك لقذره؛ فعرضوا على كسوة ، فقلت : ليست لى حاجة إلى هذه ، وإنما أردت أن أشرف بولائها ، فالحمد لله الذى مَنَّ علىَّ بحضوركم . وجلست فجعلوا يعلموننى الحمد ، وصليت معهم العصر ، وأنا فى ذلك بين يديها ، أنظر إليها لا تقدر لى على حيلة ، فلما انصرفت بقيت خالصة ، فشكت إليها فقالت : ليس يخلو هذان من أن يكونا عاشقين ، أو مستأكلين ، فصح عزمهما على امتحاننا بمال ، على أن ندع التعرض لهما ، فإن قبلنا المال فنحن مستأكلان ، وإن لم نقبله فنحن عاشقان .

فلما كان الغد مرت خالصة ، فعرض لها صاحبها ، فقال الخدم : اتبعنا ، فاتبعتهم ، ثم لم تلبث أن مرت عتبة فقال لى الخدم : اتبعنا ، فاتبعتهم ، فمضت بى إلى منزل خليط لها بزاز ، فلما جلست دعت بى ، فقالت لى : ياهذا ، إنك شاب وأرى لك أدبا ، وأنا حرمة خليفة ، وقد تأنيتك فإن أنت كففت وإلا أنهيت ذلك إلى

أمير المؤمنين ، ثم لم آمن عليك ؛ قلت : فافعلى ، بأبى أنت وأمى ، فإنك إن سفكت دمى أرحتنى ، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك ، إذ لم يكن لى فيك نصيب ، فأما الحبس والحياة ولا أراك فأنت فى حرج من ذلك ، فقالت : لا تفعل يا هذا ، وأبق على نفسك ، وخذ هذه الخمس المائة الدينار ، واخرج عن هذا البلد . فلما سمعت ذكر المال وليت هاربا ، فقالت : ردوه ، فلم تزل تردنى ، فقلت : جعلت فداك ، ما أصنع بعرض الدنيا ولا أراك ؟ ! وإنك لتبطئين يوما واحداً عن الركوب فتضيق بى الأرض بما رحبت ، وهى تأبى إلا ذكر المال ، حتى جعلت لى ألف دينار ، فأبيت ، وجاذبتها مجاذبة شديدة ، وقلت : لو أعطيتنى جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لى فيه حاجة ، وأنا لا أراك بعد أن أجد السبيل إلى رؤيتك .

وخرجت فجئت الغرفة التي كنا ننزلها ، فإذا صاحبى مورم الأذنين ، وقد امتحن بمثل محنتى . فلما مدّ يده إلى المال صفعوه ، وحلفت خالصة : لئن رأته بعد ذلك لتودعنه الحبس ، فاستشارنى فى المقام ، فقلت : اخرج وإياك أن تقدر عليك .

ثم التقتا ، فأخبرت كل واحدة صاحبتها الخبر ، وحدثتنى عتبة ، وصح عندها أنى محب محق ؛ فلما كان بعد أيام دعتنى عتبة فقالت: بحياتى عليك — إن كنت تعزها — إلا أخذت ما يعطيك الخادم،

فأصلحت به من شأنك ، فقد غمَّنى سوء حالك ، فامتنعت ، فقالت: ليس هذا مما تظن ، ولكنى لا أحب أن أراك فى هذا الزى ، فقلت: لو أمكننى أن ترينى فى زى المهدى لفعلت ذلك ، فأقسمت علىّ ، فأخذت الصرة ، فإذا فيها ثلاثمائة دينار ، فاكتسيت كسوة حسنة، واشتريت حماراً[1].

ويقولون : إنه تولع بها ليجعلها وسيلة إلى الخليفة ولينبه لنفسه الخليفة عن طريقها فانهمك فى التشبب بها ، والتعرض لها فى كل مكان ، والتفرد بذكرها ، وإظهار شدة عشقها .

ونحن لا نوافقهم على هذا ، فإنه إذا صح أن يكون ذلك منه أول معرفته لها فإن تكرار التعرض لها ، والإكثار من ذكرها — يجعل قلبه يحنّ إليها ويودها ، ولا يزال حبها ينمى ويزيد حتى يتمكن منه ، ولولا أنه أحبها حقاً ، وهام بها لما أبقى على ذكرها ، والتشبب بها زمن المهدى والهادى وصدراً من خلافة الرشيد ، وكان يكفى أن يجعلها وسيلة إلى المهدى حتى إذا عرفه المهدى ، وقربه إليه ، وأجلسه فى مجالسه ، ومنحه جوائزه انصرف عنها ، ولاسيما أن كثرة ذكرها خطر على صلته بسيدها .

* * *

(١) تاريخ بغداد . المجلد السادس .

ولسانه لم يجر عليه الغزل كثيراً فى الكوفة رغم ما كان عليه من انبساط وصبا ، ولم نعرف إلا صاحبته سعدى التى جرّت عليه البلوى ، وألهب ظهره من أجلها بالسوط ، ولذلك كان أول شعر له فى عتبة عجيباً ، فإنه بعد أول مرة يراها ، يذكر جزعه وخوفه من صوت الغراب ، ويحذر البين ، ويذكر بلاءه وتعبه وتقلقله لنعيب الغراب ، وتستهل مدامعه وتسكب ، ويحرم النوم كما يحرم الأرمد ، اقرأ قوله ، وهو أول شعر له فى عتبة :—

راعنى يا يزيد صوت الغراب ... بحذارى للبين من أحبابى
يا بلائى ويا تقلقل أحشا ... ئى وتغسى لطائر نعَّاب
أفصح البين بالنعيب وما أفـ ... ـصح لى فى نعيبه بالإياب
فاستهلت مدامعى جزعاً منـ ... ـه بدمع ينهلُّ بالتسكاب
ومنعت الرقاد حتى كأنى ... أرمد العين أو كحلت بصاب
قلت للقلب إذ طوى وصل سعدى ... لهواه البعيد بالأنساب
أنت مثل الذى يفر من القطـ ... ـر حذار الندى إلى الميزاب

ولكنه بعد أن يكرر ذكرها ويألفها ، ويتعلق قلبه بقلبها يقول :

ولقد طربت إليك حـ ... ـتى صرت من ألم التصابى
يجد الجليس إذا دنا ... ريح الصبابة من ثيابى

و بيته الثانى جميل لفظاً ووزناً ونسجاً ومعنى : فالوزن راقص ، واللفظ سهل ، والنسج عذب جميل ، وأجمل منه المعنى ، فأى تصوير أبلغ من أنك إذا دنوت منه وجدت رائحة الحب تفوح من ثيابه .

ويقول :

وإنى لمعذور على طول حبها — لأن لها وجهاً يدل على عُذر
إذا ما بدت ـ والبدر ليلة تمه ـ — رأيت لها فضلا مبيناً على البدر
وتهتز من تحت الثياب كأنها — قضيب من الريحان فى ورق خضر
أبى الله إلا أن أموت صبابة — بساحرة العينين طيبة النشر
وتبسم عن ثغر نقى كأنه — من اللؤلؤ المكنون فى صدف البحر
يخبرنى عنه السواك بطيبه — ولست به ـ لولا السواك ـ بذى خبر

وهو فى هذا القول معذور على بقائه ثابتاً على حبه لها ، لجمال وجهها ، واعتدال قدها وطيب نشرها ، ونقاء ثغرها وطيب ريحه الذى ما عرفه إلا من السواك ، وهذه معان معروفة فى بحر الغزل ، يغترف منها الشعراء جميعا ، ولكنه أحسن صوغها ، وأحكم نسجها .

وكان أبو العتاهية يشبِّب بها فيما بينه و بين نفسه ، ثم شبب بها بينه و بين أصدقائه ، و بلغها أنه يشبب بها ، وقد افتضح أمرها ، وتحدث الناس ، وشغلهم حب أبى العتاهية ، وتجرؤه على جارية زوج الخليفة ، ومجاهرته بحبه إياها ، حتى لقد كان يستفتح قصائد

المدح التى يمدح بهـا الخليفة بالتغزل فى عتبة ، ولا يبالى بعد ذلك ما يكون .

وكان يحتال أولا على لقائها من حيث لا تدرى ، ويتخذ لذلك بعض التدبير باتفاقه مع بعض أصدقائه الذين يعرفون ما بينه و بينهـا من صلة ، والذين يعرفون أنها قد شغفته حبا ، وأنها ملكت عليـه سمعه و بصره ، وتفكيره وحسه ، فهذه ر يطة بنت أبى العباس السفاح توجهها إلى عبدالله بن مالك الخزاعى ليشترى لها رقيقاً للعتق ، وتطلب إليهـا أن تحضر الرقيق ؛ فتتوجه إليه ، وتجلس عنده حتى إذا تمت الصفقة ، تسوق الرقيق إلى سـيدتها لتعتقه ، و بينما هى جالسة عنده يجىء رجل متنكر فى زى متنسك و يقول لها : جعلنى الله فداءك ، شيخ ضعيف كبير ، لا يقوى على الخدمة ، فإن رأيت ، أعزك الله ، شرائى وعتقى فعلت مأجورة ، ولا تكاد تسمع كلامه حتى تثور عاطفتها له ، وتقول لعبد الله : إنى لأرى هيئة جميلة ، وضعفاً ظاهراً ، ولساناً فصيحاً ، ورجلا بليغـاً ، فاشتره وأعتقه ؛ فيسرع عبد الله إلى إجابة طلبها ، و يشترى ذلك الرجل و يعتقه ، فيؤثر فى نفسه حسن صنيعها ، و يستأذن فى تقبيل يدها ، فتأذن له ، فيهوى عليها و يمسك يدها و يقبلها و ينصرف ، وقد شفى نفسه من بعض ما بها .

و إذ ذاك يضحك عبد الله بن مالك حتى ليكاد يمسـك على

بطنه ، ثم يقول لها : أتدرين من هذا ؟ فتقول : لا ، فيجيبها : هذا أبو العتاهية ، وإنه احتال عليك حتى قبل يدك ، وتآمرت معه لأنه لو لم يكن له إلا هذه الأبيات التى أبان فيها عن صدق الإخاء ، ومحض الوفاء ، لكفاه ، ثم أنشد البيتين :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضرُّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت شمل نفسه ليجمعك[1]

* * *

ولم نعرف عن أبى العتاهية أنه تغزل فى امرأة سوى عتبة ، إلا ما يُرْوَى من أنه هوى فى حداثته ، وهو بالكوفة ، امرأة نائحة من أهل الحيرة لها حسن وجمال ، يقال لها سعدى فانصرفت عنه إلى مولاها عبد الله بن معن بن زائدة وشكته إليه فنهاه عنها ، وخوفه ، وضربه مائة سوط ضرباً ليس بالمبرح تغيظاً عليه ، فاتهمهابالنساء ، وجفاها ، وقلاها ، وهجاها هجاء مقذعا وقد سبقت الإشارة إلى صلته بها .

ويظهر أن جارية الخيزران خافت على نفسها ، ورأت أن تدفع عنها قالة السوء فيها ، حتى لا تخسر بيت الخلافة ، وحتى لا يرميها الناس بما ليس فيها ، ولا سيما أنها تعمل فى قصر خليفة ، وأنها مقربة عند مولاتها ومولاها ، والقصر يموج بالخدم والحشم ، وكلهم يتمنى

---

(١) مروج الذهب جـ ٣

أن يكون عند الخليفة وزوجه أو أمه بمنزل عتبة أو أن يحل محلها ، فلعلهم إذا وجدوا ثغرة ينفذون منها إلى قلب الخليفة أو زوجه أو أمه نفذوا مسرعين ، عسى الله أن أن يغيِّر عليها القلوب فينفروا منها ، وينغصوها ويخرجوها من دائرة القصر الملوكى إلى دوائر السوقة اللائى يعبث بهن الشعراء ، ولايجدن من يدفع عنهن .

كانت عتبة تقدر ذلك كله ، وتضع نصب عينها أنها تجعل نفسها فى سياج قوى متين يحول بين الناس وبين قلب مولاتها أولا ، ومولاها ثانياً ، فكانت إذا سمعت أن أبا العتاهية تغزل فيها ، وأنه أنشد الشعر أمام الخليفة ذهبت إلى سيدتها باكية نائحة ، تشكو إليها أبا العتاهية ، وتستعديها عليه ، وتستدفع ما يلحقها من الشناعة بسبب شعره ، فتعطف عليها سيدتها ، ويرق لها قلبها ، وتدعوها إليها ، وتخفف عنها بعض ما بها ، ثم يدخل الخليفة المهدى فى حال من حالها ، وهى تذرف الدمع بين يدى الخيزران ، فتستمر باكية منتحبة ، فيسأل سيدها عما بها من ألم ، أو عما مسها من ضر ، فلا يجاب إلا بأن أبا العتاهية يتغزل فيها ويقول :

الله بينى وبين مولاتى أبدت لى الصدّ والملامات

وهو بيت لم يجهر فيه باسمها ، ولم يعرض بها ، ولم يقفها منه موقف الشناعة كما تقول ، وإنما هو يستعين عليها بالله ، ويحكمه فيما بينه

وبينها ، لأنها تصده ، وتعتب عليه أن يتعرض لها . ولكن الخليفة — رضى الله عنه — يرق قلبه لها ، وتؤثر فيه دموعها ، ويستجيب لرجاء الخيزران ، فيغضب ويرسل فى طلب أبى العتاهية ، ويسأله عما إذا كان هو الذى قال هذا البيت ، وعما إذا كان قاله فى عتبة ، فيجيب أبو العتاهية: نعم ، فيعجب الخليفة من ذلك ، ويعجب من أنه يقع منها صد ولوم إلا إذا كان سبقه وصل ورضا ، فيعجب من ذلك أبو العتاهية ويقول : يا أمير المؤمنين إذا كنت قلته فأنا القائل أيضا :

يا ناق خُبى بنا ولا تعدِى نفسك فيما ترين راحات
حتى تجيئى بنا إلى ملك توّجه الله بالمهابات
يقول للريح كلما عصَفت : هل لك ياريح فى مباراتى ؟
عليه تاجان فوق مفرقه تاج جمال وتاج إخبات

ولكن هذه المغالطة لم تجز على الخليفة ، رغم تأثره بالشعر المقول فى مدحه ، فإنه نكس رأسه ، ونكت الأرض بعصاه ، ثم رفع رأسه وقال : أنت القائل :

ألا ما لسيدتى مالها أدلا فأحمل إدلالها
وجارية من جوارى الملوك قد أسكن الحسن سربالها

فقال: نعم، ثم أخذ يسأله ويسأله ، وأبو العتاهية يجيب حتى أخذ الخليفة بخناقه، ولم يجد له معدى عن العقاب ، فأمر بجلده جلد المحدود،

فطرحوه أرضاً وجلدوه جلداً ، وخرج والدمع يثب من عينيه ، فلقيته عتبة باكياً متلوياً من ألم الضرب ، فما كاد يراها حتى قال :

بَخٍ بخ ياعتب ، من مثلكم ؟ قد قَتل المهدىُّ فيكم قتيلا

فما كادت تسمع كلامه حتى تغرغرت عيناها ، وفاض دمعها ، ودخلت على سيدتها باكية ، وكان الخليفة عندها ، فلما رآها سأل عن سبب بكائها ، فقيل له : لبكاء أبى العتاهية ، ولقوله :

بخ بخ ياعتب ، من مثلكم ؟ قد قتل المهدىُّ فيكم قتيلا

فأعجب المهدىَّ ذلك المنظر ، واستدعاه ، ونفحه جائزة كبيرة تبرع بها للفقراء ، ولسنا ندرى إذا كان ذلك العطف على أبى العتاهية لأنه ضرب وبكى ، أوهو عطف عليه من أجل عتبة ، أوهو عطف على عتبة نفسها ! !

* * *

وقد كانت صلة أبى العتاهية بالمهدى والرشيد قوية ، فكان يدخل عليهما ويمدحهما وينال جوائزهما ، بل كان كل منهما يرسل إليه ليؤنسه فى الوحشة ، ويسليه فى الوحدة ، وليسمر عنده فى مجالسه ، وكان كل منهما يفضله على غيره من الشعراء ، ويحكم له بالتقدم والبراعة .

هذا الوضع جعل أبا العتاهية يطلب إليهما ما لا يُطْلب من خليفة ، إلا إذا كان ذلك على سبيل المفاكهة والتظرف والتندر ؛

جعله يطلب من المهدى أن يتوسط له فى تزويج عتبة منه ، ثم يطلب من الرشيد بعد ذلك أن يتوسط له فى تزويج عتبة منه ؟ وهو طلب عجيب من شاعر الخليفة ، يطلب يد الجارية فى قصر الخليفة ، ويوسط فى ذلك الخليفة ، ولكنه يتلطف فى الطلب ، ويحسن التأتى لهذا الأمر ، ويتقدم إلى الخليفة بطريقة لا يسعه إلا أن يتحدث فيها ، ويصرّف أمرها بالقبول أو الرفض أو العرض ، فقد تقدم إلى الخليفة المهدى يوم عيد ، وكان قد استأذن فى أن يطلق له أن يهدى إلى أمير المؤمنين فى النيروز والمهرجان ، فأهدى إليه فى يوم نيروز برنية صينية ضخمة فيها ثوب ممسك مكتوب على حواشيه هذان البيتان .

نفسى بشىء من الدنيا معلَّقَةٌ   الله والقائم المهدىُّ يكفيها
إنى لأيأس منها ثم يُطْمعنى   فيها احتقارك للدنيا وما فيها

وما كاد المهدى يقرأ البيتين حتى أخذا عليه مشاعره ، وملكا عليه عقله ، لأنه أحسن المدح وأجاده ، فهمّ أن يقدم له الجائزة على ذلك المدح المعجب الجميل ، وتلك الجائزة هى عتبة ، إلا أن هذه جزعت وفزعت وتضرعت إلى أمير المؤمنين أن يبقيها ، وأن يرعى حرمتها وخدمتها ، فلا يدفعها إلى رجل بائع جرار ، متكسب بالشعر ، فأعفاها وأجازه بشىء غير عتبة ، أجازه بأن تملأ له برنيته مالا ، فلم يلبث أن نسى عتبة وغلب عليه حب المال ، وقام يناظر الكتاب ويحاول

أن يثبت لهم أن الخليفة حينما أمر بملء البرنية مالا إنما أراد دنانير والكتاب مصرون على أنه أراد دراهم ، وظل مصراً على ألا يأخذ الجائزة إلا دنانير ؛ وظل هؤلاء مصرين ألا يدفعوها إلا دراهم مالم يفصح الخليفة بما يريد ، وظل الخلاف قائماً بينه و بين الكتاب حولا كاملا ، وعتبة تعلم ماجرى بينهم ، وتسخر منه ، وتقول : لو كان عاشقاً كما يزعم لم يكن يختلف منذ حول فى التمييز بين الدراهم والدنانير وقد أعرض عن ذكرى صفحاً ، فأين موقفه هذا من موقفه أول لقائها حينما قدم إلى بغداد حديثاً ؟ فلما اعتذرت للمهدى ، ورفضت أن تتزوج منه ، وشاع ذلك فى الناس ، خشيت أن تجيب الرشيد إلى ما امتنعت عنه أمام المهدى رغم إلحاح أبى العتاهية على الرشيد ، والإكثار من مسألته فيها ، ورغم وعده إياه أن يزوجه منها ، بعد أن يسألها فى ذلك ، فإن أجابت جهزها جهازاً فاخراً ، ومنحها مالا عظيما ، وزفها إليه .

ثم عرض للرشيد من مشاغل الدولة ما شغله عن أبى العتاهية وعتبة ، فاستبطأ أبو العتاهية ذلك ، وحاول أن يلقى الرشيد ، فحجب وحيل بينه و بين الوصول إليه ، فاحتال على أن يذكره بأمره وأمر عتبة ، بأن بعث إليه ثلاث مراوح مع حاجبه ، فدخل بها الحاجب على الرشيد مبتسما فوجه إليها نظره بابتسامته ، فأخذها فإذا على واحدة منها :

ولقد تَنَسَّمت الرياحَ لحاجتى فإذا لها من راحتَيْه شميمُ

فقال . أحسن الخبيث ، وإذا على الثانية :

أعلقت نفسى من رجائك ماله عَنَقٌ يَحُثُّ إليك بى وَرَسِيم

فقال . أجاد ، وإذا على الثالثة :

ولربما استيأست ثم أقول ،لا إن الذى ضمن النجاح كريم

فقال . قاتله الله ما أحسن ماقال ، ثم دعا به وأنهى إليه أنه ضمن له زواجها ، وأنظره إلى غد ، فانصرف مسروراً .

لم يفجأها الرشيد بالأمر ، ولكنه أراد أن يحرجها ، فبعث إليها أن تنتظره الليلة فى دارها لأن له حاجة يريد أن يفضى بها إليها ؛ فأكبرت ذلك من الخليفة ، وأعظمته ، وسارت إليه تستعفيه، وتتوسل إليه أن يأمر جاريته بما يشاء ، وألا يتنازل بزيارتها فى دارها ، فحلف ألا يذكر لها حاجته إلا فى منزلها ، فلما جنَّ الليل سار إليها ومعه جماعة من خواص خدمه ، وقال لها : لست أذكر حاجتى أو تضمنين قضاءها ، قالت : أنا أفعل ، وأمرك نافذ فيما خلا أمر أبى العتاهية ، فإنى حلفت لأبيك « رضى الله عنه » بكل يمين يحلف بها بار وفاجر ، وبالمشى إلى بيت الله الحرام حافية ، كلما انقضت عنى حجة وجبت علىّ أخرى ، لا أقتصر على الكفارة ، وكلما أفدت شيئاً تصدقت به إلا ما أصلى فيه ــ وبكت بين يديه ،فرقّ لها ورحمها،وانصرف عنها(1) .

(1) مروج الذهب ج ٣

فلما غدا عليه أبو العتاهية قال له : والله ما قصرت فى أمرك ، وأخبره ما كان منه وما كان منها ، فلما سمع ذلك دارت به الأرض الفضاء ، ومكث غير قليل لا يدرى : أقائم هو أم قاعد ! ، وتمكن من قلبه اليأس لأنها ردت أمير المؤمنين فى دارها ، وردت أباه من قبل ، فلا تجيب أحداً بعدهما .

* * *

و بعد فهل كان أبو العتاهية يحب عتبة حقاً ، و يتمنى على الله وعلى خلفائه وعلى الخيزران أن تكون له منها زوجة طيبة ، يتخذها لنفسه سكنا ؟ لا نشك فى أنه كان صادق الحب ، لأننا لم نره شبَّب بغيرها إلا ما كان من أمر سعدى فى الكوفة ، ولم نره بَالَى المواقف الصعبة التى كانت تعترضه بسببها ؛ فإنه عرض نفسه لغضب الخليفة أحياناً ، ولغضب الخيزران أحياناً ، ولسخط الناس أحيانا ، واتخذ الشعراء من تشبيبه بها وسيلة لإسخاط الخليفة عليه .

و إنك إذا قرأت شعره فيها حكمت بأنه شعر صادر من القلب المشبوبة فيه نار الهوى ، فمن ذلك قوله :

أحمد قال لى ، ولم يدر مابى : أتحب الغداة عتبة حقا ؟
فتنفست ثم قلت : نعم حباً جرى فى العروق عرقاً فعرقا
ليتنى مت فاسترحت فإنى أبداً ما حييت منها ملقَّى

لا أراني أبقى ومن يلق مالا ... قَيْتُ من لوعة الجوى ليس يبقى
فاحتسب صيحتى وقل: رحمة اللـــــه على صاحب لنا مات عشقا
أنا عبد لها، وإن كنت لا أر ... زق منها، والحمد لله، عِتْقا

وقوله :

يا عتب مالى ولكِ ... يا ليتـنى لم أركِ
ملـكتنى فانتهـكى ... ما شئت أن تنتهـكى
أبيت ليـلى ساهراً ... أرعى نجـوم الفلك
مفترشاً جمر الغضا ... ملتحفـاً بالحسـك

وقوله :

أخلاَّى بى شجوٌ وليس بكم شجو ... وكل امرىء من شجو صاحبه خِلْو
رأيت الهوى جمرَ الغضا غير أنه ... على حرِّه فى صدر صاحبه حلو
أذاب الهوى جسمى وعظمى وقوتى ... فلم يبق إلا الروحُ والبدن النِّضْو
وما من حبيب نال ممن يحبه ... هوى صادقاً إلا يداخله زهو
وإنى لنائى الطَّرْف من نحو خلتى ... ومالى سواها من حديث ولا لَهْو

وقوله :

يا لهف نفسى على التى اجتنبت ... بأى جرم ترونهـــا عتبت
تبـارك الله بئس ما صنعت ... بى فى هواها وبئس ما ارتكبت
أتيتها زائراً فـــا انحرفت ... علىَّ إذ جئتهـا وما احتسبت

كم من ديون والله يعلمها ... لنا عليها لم تُقْضَ إذ وجبت
ما وهبت لى من فضلها عِدَةً ... إلا استردَّت جميع ما وهبت
فأىُّ خير وأىُّ منفعة ... لِذات دَلٍّ تُريق ما حَلبت
الله بينى وبين ظالمتى ... طَلَبْتُ منها وصالها فأبت
ماذا عليها لو أنها بعثت ... منها رسولا إلىَّ أو كتبت
رغِبت فى وصلها وقد زهِدت ... عتبة فى وصلنا وما رغبت

وقوله :

من لم يذق لصبابة طعما ... فلقد أحطت بطعمها علما
إنى مَنَحْت مودتى سَكَنا ... فرأيته قد عدها جرما
ياعتب، ما أبقيتِ من جسدى ... لحماً ، ولا أبقيت لى عظما
ياعتب ما أنا من صنيعك بى ... أعمى ولكن الهوى أعمى
إن الذى لم يدر ما كَلَفى ... ليرى على وجهى به وَشْما

و بعد هذا الذى قدمناه من شأن أبى العتاهية مع عتبة ، نستطيع أن نسأل : هل كانت عتبة تميل إلى أبى العتاهية ؟ وهل كانت تبادله إخلاصاً بإخلاص ، فوهبت له قلبها كما وهب لها قلبه ؟ وهل شغفها حباً كما شغفته حباً ؟

يخيل إلى أنها كانت فى قرارة نفسها تحبه ، وإلا فيم تبكى لأن الخليفة المهدى جلده نحواً من حد ؟ ولم تتبع أخباره حينما كان يختلف

مع خازن بيت المال على نوع الجائزة أهى دنانير أم دراهم ؟ مع أن هذا الاختلاف ظل حولا كاملا ، وإنما هى امرأة عاقلة رزينة حازمة ، رأت رجلا يشبب بها ، وينتقل شعره بين الناس حتى يصل إلى مولاها ومولاتها ، بل تبلغ به الجرأة أن يشبب بها أمام مولاها ، ولا يخشى شيئاً ، ويتخذ الخليفة من ذلك موضعاً للدعابة ، ثم يبالغ فى تلك الدعابة ، ويحاول أن يزوجها منه ولكنها تأبى متوسلة إليه لأنه لا يمكن أن يكون موقفها من الخليفة ومن زوجته أو أمه سليما إذا أظهرت هواها فيه بقبولها التزوج منه .

ونستطيع أن نرجح أن أبا العتاهية لم يعلق قلبه بغير عتبة ، ولم يشبب بأحد سواها بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وأن أخباره معها لم تصل إلينا كاملة فنحن نعرف من صاحب الأغانى أن أخباره معها كثيرة جداً ، جعلته ينوى أن يفرد لها باباً خاصاً من كتابه ، كما فعل مع أبى نواس ومحبوبته جنان ، وكما فعل مع غيرهما ، ولكنه لم يفعل ولا ندرى لذلك سببا .

لهذا نرى أنه كان يحبها حباً عنيفاً شريفاً ، لا تشوبه ريبة ، ولا يكدر صفاءه مكدر ، فلم يفعل فعل بشار الذى أحب عبدة ، وأمامة ، وخشابة ، ورحمة الله ، وخاتم الملك ، وتنقل هواه بين كل واحدة من هؤلاء ، ولعله تنقل بين غيرهن ، وكان له فى كل واحدة

شبب بها حاجة يظفر بها حيناً ، ولا يظفر بها أحيانا ، وكثيراً ما ذكر مذهب الثانوية الذى من مبادئه أن يجعل النساء حقاً مشاعاً بين الرجال ، وحتى لا تثبت عليه تهمة الزندقة كان ينبه العقول لهذا المذهب بأن يظهره للناس فى معرض هجاء ، وقد امتد عبثه حتى انتقل من النساء إلى غير النساء ، ولكن تحت ستار شفيف من التحفظ والتوقر ، فأين غزل هذا من غزل أبى العتاهية ؟

وكذلك لم يفعل فعل أبى نواس الذى قالوا عنه : إن أكثر شعره وأجوده فى الخمر والصيد والطرد ، وشبب بعنان ، ونرجس ومعشوق جارية أسماء بنت المهدى ، وجنان جارية آل عبد الوهاب الثقفى التى شغف بها حباً وهام بها لباً ، وجارية القاسم بن الرشيد ، وجارية من جوارى بنى المهلب بن أبى صفرة ، وغيرهن ، ومع ذلك فقد كان النساء لا يشغلنه عن أصله ، ولا يحرفنه عن طبعه ، لأن الأصل فيه أن يتغزل بالغلمان ، وأن يتعشقهم ، إلى حدٍّ أنه إذا عرف امرأة صيرها غلاما .

هذا الشاعر الماجن له من المحدثين جليل العناية ، فهم يتذاكرون شعره ، ويتدارسون تاريخه ، ويقلبون حياته على كل وجه ، وكل له وجهته ومذهبه ، فتتفشى كتبهم الشباب ، ويقبلون عليها إقبالا ، ويلتهمونها التهاما ، مدفوعين بدافع من عبث الغريزة ومجانة الشيطان

ولا يفكر الكاتب أنه موجه النشء ، ومربى الجيل ، وهاديه النجدين . وقد كان فى مثل ما عرف عن أبى العتاهية ، ومن تحرجه غناء فى هذه الناحية يغنينا عن التورط والإفراط فى المدارسة والتفريط فى حق الشعب .

أبو العتاهية والخلفاء

أبو العتاهية والمهدى

نزح أبو العتاهيــة من الـكوفة إلى بغداد مقر الملك ، وموطن السلطان ، وعش الشعراء ومجمع الأدباء ، وموئل العلماء ، ومستقر القواد والأمراء ، وما كان ذلك بدعاً منه ، فقد كان كل عالم يريد أن يشتهر علمه ، وكل شاعر يريد أن يكسب العيش بشعره ينتجع بغداد ، ليستظل بظل الخلفاء ، ويتقلب فى نعيمهم . وما إن شب أبو العتاهية ، وبدأ يشتهر ، حتى رأى أن صيته لا يطير إلا إذا خرج إلى بغداد ، فخرج إليها ، وكان ذلك زمن المهدى ، إلا أن الـكتب لا تحدد لنا الوقت الذى ارتحل فيه من الـكوفة ، كما لم تحدد لنا الوقت الذى عاد فيه إليها ، ثم استدعاه المهدى ثانية إلى بغداد كما قدمنا . وتقول بعض الروايات : إن أبا العتاهية لم يشتهر بهذه الـكنية إلا بعد أن انتقل إلى بغداد ، وما كان يعرفه بها أهل الـكوفة وهو هناك، فذكروا أن المهدى قال له يوماً : إنك إنسان متحذلق متعته[١] .

(١) لسان العرب ، مادة عته .

فاســتوت له من ذلك كنية غلبت على اسمه « إسماعيل » وكنيته « أبى إسحاق » وسارت له فى الناس .

وكان المهدى يُطْمَع فيه ، ويؤنس إلى جواره ، ويرجى الغنى من يديه ؛ فهو رجل حبيب إلى « الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم، والكف عن القتل، وأمن الخائف وإنصاف المظلوم، وبسط يده فى الإعطاء »[1] فهو رجل كريم ، بذول للمال ، يبسط يديه بالعطاء ، حتى يأتى على ما خلفه له المنصور من المال على كثرته ، ويأتى على ما يجمعه من الضرائب المحمولة إليه من مشارق المملكة ومغاربها ، ويأتى على ما يملكه من ماله الخاص، حتى لقد كانت خزانته تبيت فارغة من المال أحياناً فيفزع ذلك خلصاءه من الناس ، فيعتبون عليه ، فيسخر منهم ، فيقسون فى العتاب ، وينذرونه بأن « الحادثة إذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه فى استخراج الأموال وحملها » .

والمهدى فوق كرمه كان يكرم العلمــاء ، ويجلسهم فى مجلسه ، ويدلون عليه بعلمهم ، منهم : سفيان الثورى ، وشريك القاضى ؛ وكان أديباً يعرف الشعر ، ويناقض الشعراء ، ويؤثر فيه المعنى المليح ، وينقض المعنى القبيــح ، وله فى ذلك جولات مع بشار ومروان بن أبى حفصة وأشجع وأبى دلامة وسلم الخاسر وغيرهم من شعراء العصر .

---

(١) مروج الذهب جـ ٣

لهذا كان حقاً على أبى العتاهية ، وهو رجل يحب المال ، أن يلوذ بهذا الخليفة ويتقرب إليه ويمدحه ، حتى ينال عطاءه ؛ وله مع بشار قصة مشهورة ، تروى كتب التاريخ وكتب الأدب ، وكتب التلاميذ فى المدارس ، كنا نود ألا نذكرها لشهرتها ، إلا أن هذا يعتبر نقصاً فى وحدة البحث ، لهذا نذكرها .

وإن لم تفد جديداً غير معروف ؛ فقد حدثوا أن المهدى جلس يوماً للشعراء فأذن لهم وفيهم بشار وأشجع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار وغيره ، وكان فى القوم أبو العتاهية ، قال أشجع : فلما سمع بشار كلامه قال : يا أخا سليم ، أهذا ذلك الكوفى الملقب ؟ قلت نعم ، قال لا جزى الله خيراً من جمعنا معه — ثم قال له المهدى : أنشد ، فقال : ويحك ! أو يبدأ فيستنشد أيضاً قبلنا ؟ فقلت قد ترى ، فأنشد :

ألا ما لسيدتى مالها ؟ أدلا فأحمل إدلالها ؟
وإلا ففيم تجنَّت وما جنيت ؟ شفى الله أطلالها
ألا إن جاريةً للإما م قد أسكن الحب سربالها
مشت بين حور قصار الخطا تجاذبن فى المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها وأتعب باللوم عذالها

قال أشجع : فقال لى بشار : ويحك يا أخا سليم ! ما أدرى

من أى أمر به أعجب : أمن ضعف شعره ، أم من تشبيبه بجارية الخليفة ، يسمع ذلك بأذنه ؟ حتى أتى على قوله :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها
وإن الخليفة من بغض لا إليه ليبغض من قالها

قال أشجع : فقال لى بشار وقد اهتز طرباً : ويحك يا أخا سليم : أترى الخليفة لم يطر عن فرشه طرباً لما يأتى به هذا الكوفى ؟

ومن عادة أكثر الشعراء قديما وحديثاً أنهم يتحاسدون ويتناقشون على الباب الذى يكثر رطبه ويستظل بجاهه ، ويمرغون جباههم على أعتابه ، ويعصبون بطونهم ، إلى أن ينضج طعامه ، وتمد موائده ؛ لهذا كان بشار يُبغض أبا العتاهية ، لأن المهدى قدمه عليه فى كثير من الأحيان ، ولأنه كان أسخى عليه يداً ، وأجزل له عطاء ؛ وكان بشار يرى نفسه أشعر من أبى العتاهية ، وأحق بالتقدير منه ؛ لهذا كان يهزأ به ، ويسخر من شعره ، ولكن الشاعر رجل عاطفى خيالى ، يستخفه الطرب ، ويهزه الخيال الجميل ، وتثور عاطفته فتطغى على ماعسى أن يكون فى نفسه من الحفائظ والأحقاد ؛ لهذا

لم يكن عجباً أن يغير بشار رأيه فى ذلك الكوفى ، أو فى شعره ، بعد أن كان يؤلمه أن يقدم عليه ، و بعـد أن كان يستثير عليه الخليفة تغيظاً منه بأن شبب فى عتبة ، و يروى أنه أجاد إجادة كانت خليقة بأن تجعل الخليفة يعجب منه عجباً يجعله يطرب ويطرب حتى يطير من على فراشه ، ولا شك أن حلاوة إنشاد أبى العتاهية ، وحسن تنقيحه الشعر كان لهما الأثر الأول فى نفس بشار ، ولا تقول ملاحة الحركات طبعا ، لأن بشار كان أعمى .

واتصل أبو العتاهية بالمهدى اتصالا جعل له عنده منزلة كبيرة فهو يصاحبه فى رياضته ، ويجالسه فى خلوته ، فيتشفع فى المغضوب عليهم فيشفع فيهم ، وكانت منزلتـه تعادل أو تدانى منزلة الخاصة والوزراء المقربين ، وكان يتبسط معه تبسطا لا يكون إلا بين صديقين ليس بينهما كلفة ولا تحرز ولا تصون ، ورووا عنه أنه قال ، أخرجنى المهدى معه إلى الصيد ، فوقفنا منه على شىء كثير ، فتفرق أصحابه فى طلبه ، وأخذ هو فى طريق غير طريقهم ، فلم يلتقوا ؛ وعرض لنا وادى جرار ، وتغيمت السماء ، و بدأت تمطر ، فتحيرنا ، وأشرفنا على الوادى ، فإذا فيه ملاح يعبر الناس ، فلجأنا إليه ، فسألناه عن الطريق فجعل يضعف رأينا ، و يعجزنا فى بذلنا أنفسنا فى ذلك الغيم للصيد حتى أبعدنا ، ثم أدخلنا كوخا له ، وكاد المهدى يموت برداً ، فقال له :

أغطيك بجبتى هذه الصوف ؟ فقال : نعم ، فغطاه بها ، فتماسك قليلا ونام ، فافتقده غلمانه ، وتبعوا أثره حتى جاءوا ، فلما رأى الملاح كثرتهم علم أنه الخليفة فهرب ، وتبادر الغلمان ، فنحوا الجبة عنه ، وألقوا عليه الخز والوشى ، فلما انتبه قال لى : ويحك ! ما فعل الملاح فقد « والله » وجب حقه علينا ، فقلت : هرب والله خوفا من قبح ما خاطبنا به ، قال : إنا لله ، والله لقد أردت أن أغنيه ، وبأى شىء خاطبنا ؟ نحن والله مستحقون لأقبح مما خاطبنا به ، بحياتى عليك إلا ما هجوتنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، كيف تطيب نفسى بأن أهجوك قال : والله لتفعلن ، فإنى ضعيف الرأى ، مغرم بالصيد فقلت:

يا لابس الوشى على ثوبه ما أقبح الأشيب فى الراح

فقال : زدنى بحياتى ، فقلت :

لو شئت أيضاً جُلْتَ فى خامة وفى وشاحين وأوضاح

فقال : ويلك ! هـــذا معنى سَوْء يرويه عنك الناس ، وأنا أستأهل ، زدنى شيئاً آخر ، فقلت أخاف أن تغضب ، قال لا والله فقلت :

كم من عظيم القدر فى نفسه قد نام فى جبــة ملاح

فقال معنى سَوْء عليك لعنة الله ! وقمنا وركبنا وانصرفنا

فالمهدى يدعوه إلى هجائه ، فيتخوف على نفسه ويعتذر ، فيعزم

عليه أن يفعل ، فيجيب ، ولكنه هجاء فيه مداعبة ومدح ، فيرضى به المهدى ، وينجو من غضبه أبو العتاهية ، ويظل مقرباً إليه ، أثيراً عنده ، يجالس وزيره أبا عبيد الله ، وإن كان أبو عبيد الله يكره ذلك ، لأنه يكره أبا العتاهية ، ولأن المهدى وجد عليه لبعض الأمور فجعل يشتمه ويتغيظ عليه ، وأبو العتاهية يسمع ، ثم أمر أن يجر برجله ويحبس ، وأبو العتاهية يرى ولا يتكلم ، حتى إذا سكن المهدى وهدأ ، وقرت نفسه أنشد أبو العتاهية :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه ... عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

فالمهدى وإن كان طبعه أنه حسن العفو ، كريم الظفر ، لا يتكلم فى الأمور على غير ثقة »[1] ، إلا أنه سمح لشاعر أن يتوسط لديه ، وأن يعفو له عن وزير يدبر شئون الملك ، فما منزلة هذا الشاعر عنده لابد أن تكون منزلة دونها منزلة كثير من خاصته ، ولو قدرنا أن الذى كان بمجلس الخليفة حينئذ بشار أو أشجع السلمى أو مروان ابن أبى حفصة أو غيرهم من شعراء العصر ، أفكان يجرؤ أن يستشفع ثم أكان يعفو الخليفة استجابة لشفاعته ؟ أظنه لا يعفو ، لأن منزلة

(١) التنبيه والإشراف ص ٢٩٧

هؤلاء جميعاً عنده دون منزلة أبى العتاهية الذى كان يصحبه فى سروره وحزنه ، و إقامته وسفره ، فهو سميره إذا أراد سميراً ، وخليله إذا اصطفى خليلا ، ومعزيه إذا فقد عزيزاً ، ومنسيه ألم المصاب ، فقد حدث أن ماتت له بنت فحزن عليها حزناً شديداً حتى امتنع عن الطعام والشراب ، فقال أبياتاً يعزيه بها ، فسلا وضحك وأكل وهو يقول : لابد من الصبر على ما لابد منه ، ولئن سلونا عمن فقدنا ليسلون عنا من يفقدنا ، وما يأتى الليل والنهار على شىء إلا أبلياه . وما سمع أبو العتاهية منه هذا الكلام حتى استأذنه فى الإنشاد ، فأنشد :

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما ... وكل غَضٍّ جديد فيهما بال

يا من سلا عن حبيب بعد ميتته ... كم بعد موتك أيضاً عنك من سال؟

كأن كل نعيم أنت ذائقه ... من لذة العيش يَحْكى لمعة الآل

لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ... ما شئت من عِبَر فيها وأمثال

ما حيلة الموت إلا كل صالحة ... أولا فما حيلة فيها لمحتال

فقال المهدى : أحسنت ويحك ، وأصبت ما فى نفسى ، ووعظت وأوجزت ، ثم أحسن جائزته ، وليت شعرى ، ما الذى كان يطلق لسانه فى مدح المهدى ؟ أهو حبه للمهدى و إخلاصه له ؟ أم آلاف الدراهم التى كان يحتويها منه إذا سره أو سلّاه أو وعظه بأبيات من الشعر . ومن مدائحه فيه قوله :

ومهمه قد قطعت طامسَه قفرٍ على الهول والمحاماةِ
بجسرة حرة عـــذاقرة خوصاء عيرانه علنـداة
تبادر الشمسَ كلما طلعت بالسير تبغى بذاك مرضاتى
يا ناق خبي بنا ولا تَعِدى نفسك مما ترين راحات
حتى تناخى بنا إلى ملك توّجه الله بالمهـــابات
عليه تاجان فوق مفرقه : تاج إجلال وتاج إخبات
يقول للريح كلما عصفت هل لك ياريح فى مباراتى ؟

وقوله :

عَلِم العـــالم أن المنايا سامعات لك فيمن عطاكا
فإذا وجهتهـا نحو طاغ رجعت تَرْعَفُ منه قناكا
ولو أن الريح بارتك يوماً فى سماح قصَّرت عن نداكا

وحدث يوماً أن وقعت بينهما جفوة ، وأعرض عنـه المهدى ، وتلطف حتى أنشده :

أنت المقـابل والمدا بر فى المناسب والعديد
بين العمومة والخئو لة والأبوة والجـدود
فإذا انتميت إلى أبيـ ـك فأنت فى المجد المشيد
وإذا انتمى خال فمـا خال بأكرم من يزيد

كما أنشده أيضاً قصيدة منها المقطوعة السابقة (علم العالم إن

المنـايا . . . . الخ) وعرض فى أثنائها لشىء يرغب فيه ولا يريده الخليفة ، ولكن أطمعه فيـه تقديره له فساء الخليفة ذلك الطمع ، وخيره بين أن يؤدبه بضرب تحفى منه قدماه ويعطيه ثلاثين ألف درهم جائزة على مدحه ، وبين أن يعفو عنه ويحرمه الجائزة ، فأجابه أبو العتاهية : بل يضيف أمير المؤمنين إلى كريم عفوه ، جميل معروفه ومكرمتان أكثر من واحدة ، وأمير المؤمنين أولى من شفع نعمه ، وأتم كرمه ، فمنحه الجائزة وعفا عنه[1] .

وكان لا يمدح إلا لعطاء ، ولا يترك فرصة يمكن أن يخلق منها مناسبة تدر عليه مالا من غير أن يستفيـد منها ، وكان لا يكتفى بالمدح المجرد ليأخذ ، بل يصرح بالطلب أحيانا ولا يرى فى ذلك بأسا ، ومنه قوله وقد ضربت سكة جديدة وهو غائب فى الحج .

خبرونى أن من ضرب السنة جـدداً بيضاً وحمـراً حسنة
لم أكن أعهـدها فيما مضى مثل ما كنت أرى كل سنة[2]

وكان يحتال على المهدى بأنواع من الحيل ، منها أنه كان يقدم إليه الهدايا فى الأعياد ، ويرسل معها شعراً يطلب فيه مالا ، فقد ذكروا أنه أهـدى إليه فى يوم نيروز ومهرجان برنية صينية فيها ثوب ممسك ، عليه بالعنبر .

(١) الديوان ص ٣١١
(٢) بعض الروايات يذكر أن هذه الحادثة كانت مع المأمون لا مع المهدى

نفسى بشىء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدى يكفيها
إنى لأيأس منها ثم يطمعنى فيها احتقارك الدنيا وما فيها

وكان أبو العتاهية حريصاً على رضا الخليفة كسباً للحياة ، وكسباً للمال ، واستمتاعا بعز المكانة ، ورفاهية المنزلة ، وإغاظة لمنافسيه بشار وسلم ومروان وغيرهم ، إلا أن أصحاب السلطان لا يؤمن غضبهم ، ولا يطمع فى استدامة رضاهم ، ولا سيما أن حاشية السلطان كل فرد فيها يرتاب فى الآخرين ، ويعيشون فى جو من الرهبة ، وتسيطر عليهم هالة من الشكوك ، ويعتصمون دائما بسوء الظن ، ويحاول كل منهم أن يكون هو القريب ، ويبذل للزلفى مختلف الوسائل التى تجعله موثوقا به ، مرضياً عنه ، مرقوما بعين مطمئنة إليه ، ومطمئن هو إليها ، ولكن كل عين حوله سيف مسلول فى جنب هذا الرضا ، تحاول تمزيقه ، والكشف عنه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا المخاتلة والغدر والاغتياب والنم ، وأذن صاحب السلطان مفتوحة ، تتلقى من كل لسان ، وتزن كلا بميزان ، وكل منهم يحاسب نفسه على النظرة واللفتة، والابتسامة والعبسة ، والانحناءة والانبساطة، والجلسة والقومة والمشية ، حتى ليخيل إليه أن الخاطر يخطر بباله أو أن الشىء يمر بخياله — يعرفه من حوله ، وإن لم تبد إمارة على وجهه .

عرف ذلك كله أبو العتاهية وقدره ، وهو يحرص على أن يكون

مرضياً عنه من دار الخلافة ، ولكنه يفرض أن الخليفة يغضب عليه يوما فيفتر مابينهما ، وتضيع عليه بدر المال التى كان يملأ بها يديه بأبيات من الشعر ، وقد يفترى عليه ذنب عظيم فيضرب أو يحبس أو يعذب أو يقتل ، فاحتاط لهذا ، وحسن الصلة بينه و بين وزير الخليفة ومستشاره ومدبر ملكه أبى عبيد الله ، ولكن الخليفة غضب أيضاً على وزيره ، وشفع فيه أبو العتاهية نفسه وشفع له ، فكان راجياً لمن كان يدخره ، يرجوله ، فلجأ إلى من تربطه بالخليفة وشائج القربى وصلاة الأرحام ، لجأ إلى من يقع من الخليفة موقع أبيه ، لجأ إلى خال الخليفة ولم يمدح خاله وكفى ، بل تعداه إلى أسرته ، بل تعداه إلى مدح القبيلة كلها ، و إلى مدح اليمانية جميعاً فقال :

سُقيت الغيثَ يا قصر السلام ... فنعم مَحِلة الملك الهمام

لقد نشر الإله عليك نوراً ... وحفك بالملائكة الكرام

سأشكر نعمة المهدى حتى ... تدورَ على دائرةُ الحِمام

له بيتان بيت تبنى ... و بيت حل بالبلد الحرام

لهذا أحبه يزيد بن منصور ، وتعصب له ، ولا سيا بعد أن مدح اليمانية ؛ والتفاخر بين اليمانيين والعدنانيين قديم ، وله دور خطير فى تاريخ العرب ، ولهذا انتقى أبو العتاهية من عنزة انتقاء ، وجعل نسبه فيمن يحتاج إليهم ، وما زال لائذاً بهم ، معتصما بجاههم ، حتى

إذا غضب الخليفة تكلم فيه يزيد بن منصور حتى أطلقه وخلصه وأرضى الخليفة عنه ، فقال يمدحه :

ما قلت فى فضله شيئاً لأمدحه إلا وفضلُ يزيد فوق ما قلت
ما زلت من ريب دهرى خائفاً وجلا فقد كفانى عبد الله ما خفت

ولهذا حزن واشتد حزنه عليه حين بلغه خبر وفاته ، ونعاه إلى الناس فى شعره ولم يستطع أن يخفى أنه فقد فيه ماله ونسبه وشعره ونثره ، وقد سبق تفصيل ذلك .

ومن عجبٍ أن أبا العتاهية يرثى صديقه زائدة بن معن الكوفى ، ويروى الرواة رثاءه ، ويرثى يزيد بن منصور خال المهدى ، ويروى الرواة رثاءه ، ويرثى الفضل بن عباس بن عقبة صديقه ، ويروى الرواة رثاءه ؛ ولكنه لا يرثى المهدى ، ولا يروى الرواة شعراً له فى رثائه ، وكل ما روى له من ذلك أنه علم أن المهدى مات ميتة عجبا ، فقد مات فى إحدى رحلاته أسرَّ ما يكون حالا ، وأصحَّ ما يكون بدنا ، ثم أصبح فى سريره مسجًّى ، أما سبب ذلك فالمؤرخون مضطربون فيه ، وتحقيقه هنا لا يعنينا [1] ، وإنما الذى يعنينا أنه بات صحيحاً معافى ، ثم أصبح مفارقاً الحياة ، وحوله جاريته

(١) تفصيل هذا فى تاريخ الطبرى جـ ١٠ وابن الأثير جـ ٦ وابن خلدون جـ ٣ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠

حسنة وجواريها، يبكينه، ثم تعود إلى بغداد فى قبة عليها المسوح، فيراها أبو العتاهية فيقول :

رُحْن فى الوشى وأصبحـن عليهن المسوح
كل نطّاح من الدهر له يوم نطوح
لستَ بالباقى ولو عمّـرتَ ما عمـر نوح
فعـلى نفسك نح إن كنت لا بد تنوح[1]

وذكر أبياتاً ليست رثاء للمهدى. فلا هو يتوجع عليه، ولا هو يبكيه، وإنما هو شامت فيه، ولا يتحمس إلا على حسنة وصواحباتها رافلات فى المسوح السود، ولكن : أكان من الخلق الجميل أن يحزن على أصدقائه الذين يموتون، ويرثيهم ويروى لنا رثاؤه لهم كله أو بعضه، وألا يحزن على سيده وولى نعمته فلا يرثيه ولا يبكيه ؟ الحق أننا لا نستطيع أن نقطع بأنه رثاه وبكاه، وناح عليه، أو لم يرثه ولم يبكه ولم ينح عليه ؛ فمن الجائز أن يكون فعل ذلك ولكن الشعر لم يصل إلينا لأنه ضاع، أو لأنه لم يروه الرواة لأمر من الأمور ومن الجائز أيضاً أنه لا يكون فعل ذلك بالقدر الذى يتناسب مع علاقته بالمهدى لأنه فوجىء بخبر موته مفاجأة لم يحسب لها حساباً،

(١) بعض المراجع تجعل هـذه الأبيات ضمن قصيدة قيلت للرشيد فى مناسبة خاصة، ومطلعها :

خانك الطرف الطموح أيهـا القلب الجمـوح

وكانت علاقته بالخليفة الجديد فيها فتور شديد ، لأن أبا العتاهية كان قريباً إلى قلب الرشيد أكثر من الهادى ، فكان يجالس الرشيد ويصادقه ويصافيه ويمدحه ، ويجفو الهادى وينفر منه ولا يتقرب إليه ، فحزّ ذلك فى نفس الهادى وغيّر قلبه عليه ، لذلك كان همّ أبى العتاهية حينما فوجىء بوفاة المهدى أن يزيل ما بينه وبين الهادى حتى لا ينقطع المعين الذى يجرى إليه ذهباً وفضة من دار الخلافة ، ولا سيما أن الهادى كان رجلا غليظ القلب صعب المراس شرس الأخلاق، فيه قسوة وصرامة ولكنه كان كثير الأدب محباً له ، ولهذا بدأ أبو العتاهية يذكر خوفه منه ، ويستعطفه بشعر كثير ، منه :

ألا شافع عند الخليفة يشفع ... فيدفع عنا شر ما نتوقع ؟
وإنى على عُظْم الرجاء لخائف ... كأنى على رأسى الأسنة تُشْرع
يروّعنى موسى على غير عثرة ... ألا إنما موسى من العَفْو أوسع[1]
وما آمن يمسى ويصبح عائذاً ... بعفو أمير المؤمنين ، يُرَوَّع

ثم ما زال يتقرب إليه بالمدح متحفظاً ، فقال :

يضطرب الخوف والرجاء إذا ... حَرَّكَ موسى القضيبَ أو فكَّر
ما أبين الفضل فى مُغَيَّب ما ... أورد من رأيه وما أصدر

---

(١) رواية الديوان : ومالى أرى موسى من العفو أوسع

فكم ترى عزَّ عند ذلك من   مَعشرٍ قوم وذلَّ من معشر
يثمر من مسه القضيب ولو   يمسه غيره لمـــــا أثمر
من مثلُ موسى ومثلُ والده المـــهدى أو جـــده أبى جعفر

فلما سمع المهدى هذا الشعر رضى عنه ، وقربه إليه ، وأدخله عنده فأنشده حينما لقيه أول لقاء :

لَهْفِى على الزمن القصير   بين الخورنق والسَّـديرِ
إذ نحن فى غُرَف الجنا   نِ نعوم فى بحر السرور
فى فتية ملكوا عِنا   نَ الدهر أمثالِ الصقور
ما منهمُ إلا الجسـو   رُعلى الهوى غيرُ الحَصور
يتعاورون مـدامة   صهباءَ من حَلب العصير
عـذراء ربَّاها شعـا   ع الشمس فى حر الهجير
لم تدن من نار ولم   يعلَق بها وَضَرُ القُدور
ومقـرطقٍ يمشى أما   م القوم كالرشـأ الغرير
بزجاجة تستخرج السـر الدفين من الضمير
زهراءَ مثلِ الكوكب الدُّ   رى فى كف المـدير
تدع الكريم وليس يد   رى ما قبيلٌ من دبير (١)

(١) القبيل : ما وليك ، والدبير : ما خالفك . يقولون : لا يعرف قبيله من دبيره ؛ ولا يدرى قبيلا من دبير ، أى لا يعرف شيئا .

ومخصَّرات زرننـــــا بعد الهُدُوِّ من الخدور (١)

رَيَّا رواد فهن يلـ بسن الخواتم فى الخصور (٢)

غرّ الوجـوه محَجَّبـا تٍ قاصرات الطرْف حور

متنعمـــاتٍ فى النعـــيم مضمَّخاتٍ بالعبـير

يرفان فى حلل المحا سن والمجاسد والحرير (٣)

ما إن يرين الشمس إلا الفرْط من خلل الستور (٤)

وإلى أمين الله مهـ ـر بنا من الدهر العثُور

وإليـه أتعبنـا المطا يا بالرواح وبالبكور

صُعْرِ الخـدود كأنمـا جُنِّحن أجنحة السرور

متسربلاتٍ بالظـلا م على السهولة والوعور

حتى وصلن بنا إلى رب المدائن والقصـور

ما زال قبـل فطامـه فى سن مكتهل كبير

فلما سمعها وصله كما كان يصله أبوه ، وأجزل له فى العطاء ، فترك هارون ، وسار فى ركاب الهادى ، وقد هيأ له القدر الفرصة ، فولد للهادى ولد أول عهده بالخلافة ، فبعث هذا الحادث شاعريته ، فهنأه بقصيدة منها :

---

(١) مخصرات : دقيقات الخصور (٢) ريا : ممتلئة (٣) المجاسد: جمع مجسد ، وهو القميص الذى يلى البدن (٤) الفرط : الحين .

أكثر موسى غيظ حساده وزين الأرض بأولاده
وجاءنا من صلبه سيد أصيد فى تقطيع أجداده
فاكتست الأرض به بهجة واستبشر الملك بميلاده
كأننى بعد قليل به بين مواليه وقواده
فى محفل تخفق راياته قد طبق الأرض بأجناده

وظل أبو العتاهية يتردد عليه ، ويتابع مدحه ، ويوالى المهدى إعطاءه .

ومن مدائحه قوله :

يا أمين الله مالى لست أدرى اليوم مالى
لم أنل منك الذى قد نال غيرى من نوال
تبذل الحق وتعطى عن يمين وشمال
وأنا البائس لا تنظر فى رقة حالى

فلما سمع المهدى قوله عز عليه أن يكون بائساً ، رقيق الحال ، لا يناله ما ينال غيره من النوال ، فكأنه كان يتشكك فى رضاه عنه ، فأمر بإعطائه جائزة سنية ؛ إلا أن خازن بيت المال أبى أن يعطيه إياها ، فخشى أبو العتاهية أن يشكو إليه خائفاً قسوته ومتهيبا ، ولكنه لجأ إلى أحد جلساء الخليفة(١) وقال له :

---

(١) هو أبو الوليد أحمد بن عقال .

أبلغ سلمت أبا الوليد سلامى	عنى أمـير المؤمنين إمامى
وإذا فرغت من السلام فقل له	قد كان ما شاهدتَ من إكرامى
وإذا حَصِرتُ فليس ذاك بمبطل	ما قد مضى من حرمتى وذمامى
ولطالما وفدَت إليك مدائحى	مخطوطةً فليـأت كلُّ مَلام
أيام لى لَسَنٌ ورقّةُ جِدّة	والمـرء قد يَبْلَى مع الأيام

فلما سمع الخليفة ذلك أنفذ إليه الجائزة بنفسه . وكان مدحه له يجود أحياناً ومن جيده قوله :

ولمـا استقلوا بأثقالهم	وقد أزمعوا للذى أزمعوا
قرنت التفـاتى بآثارهم	وأتبعتهم مُقْـلة تدْمَع

ولقد ساء حظ أبى العتاهية بقصر عمر الهادى ، فإنه لم يقض فى الخلافة غير عام وأقل من شهرين ، فأظهر الحزن عليه ، ولكننا لم نعثر له على رثاء يدل على أنه بكاه وتفجع عليه ، ولعله ضاع فيما ضاع من شعره .

أبو العتاهية والرشيد

يظهر أن قسوة الهادى جعلت أبا العتاهية يغنى فيه رغم قصر مدته ، ويغاضب الرشيد ، ويتنحى عنه ، مع أن هواه كان فيه زمن المهدى ، ففتر ما كان بينهما من مودة ، ولا سيما أن الرشيد كان فى جانب أمه الخيزران التى كان أخوه الهادى يغاضبها ، ويضيق عليها ، حتى برمت به ، ودست له سما مات به على أصح الروايات ، فخلص الحكم للرشيد ، وما كاد يتولاه حتى جاء بأبى العتاهية وإبراهيم الموصلى المغنى وحبسهما ، ونترك صاحب الأغانى يتحدث عن ذلك قال : لما مات موسى الهادى قال الرشيد لأبى العتاهية : قل شعراً فى الغزل ، فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً، فحبسه . وأمر إبراهيم الموصلى أن يغنى ، فقال : لا أغنى بعد موسى أبداً ، وكان محسنا إليهما ، فحبسه ، فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفيرة واسعة وقطع بينهما بحائط ، وقال : كونا بهذا المكان لا تخرجا منه حتى تَشْعُر أنت ويغنى هذا ، فصبَرا على ذلك برهة ، وكان الرشيد يشرب ذات يوم وجعفر بن يحيى معه ، فغنت جارية صوتا فاستحسناه ،

وطربا عليه طرباً شديداً ، وكان بيتاً واحداً ، فقال الرشيد : ما كان أحوجه إلى بيت ثان ليطول الغناء فيه فنستمتع مدة طويلة به ، فقال له جعفر : قد أصبته ، قال : من أين ؟ قال : تبعث إلى أبي العتاهية فيلحقه به ، لقدرته على الشعر وسرعته ، قال : هو أنكد من ذلك ، لا يجيبنا وهو محبوس ونحن فى نعيم وطرب ، قال : بلى ، فاكتب إليه حتى تعلم صحـة ما قلت لك ، فكتب إليه بالقصة وقال : ألحق لنا بالبيت بيتاً ثانيا ، فكتب إليه أبو العتاهية :

شُغل المسكين عن تلك المِحَنْ فارقَ الروحَ وأخلى من بَدَن
ولقد كُلِّفتُ أمراً عجبـــا أسْأل التفريجَ من بيت الحَزَن

فلما وصلت قال الرشيد : قد عرفتك أنه لايفعل ، قال : فتخرجه حتى يفعل ، قال : لا حتى يشعر ، فقد حلفت . فأقام أياماً لا يفعل ، قال : ثم قال أبو العتاهية لإبراهيم : إلى كم هذا تُلاجُّ الخلفاء ، هلُمَّ قلْ شعراً وتغنى فيه ، فقال أبو العتاهية :

بأبي من كان فى قلبي له مرةً حُبٌّ قليـلٌ فَسُرِقْ
يا بني العبـاس فيـكم ملك شُعَب الإحسان منه تفترق
إنمـا هارونـ خـير كله مات كل الشر مذ يوم خلق

وغنى فيه إبراهيم فدعا بهما الرشيد ، فأنشده أبو العتاهية ، وغناه إبراهيم ، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ، ومائة ثوب .

والحق أن أخبار أبي العتاهية مع الرشيد فيها اضطراب كثير، فهو يرضى عنه، ويقربه إليه، ثم يغضب عليه، ويقصيه عنه؛ فيقاطعه أحياناً، ويزج به فى غيابة السجن أحيانا، وكان يطلب أن يشعر فلا يجيب، ويمتنع عليه، ولعله كان لا يستطيع أن يفعل ذلك مع الهادى، ولكن الذى أطمعه فى الرشيد ما كان عليه من خلق كريم، وعلم غزير، فقد قالوا: إنه كان «من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم، كان يحج سنة ويغزو سنة، وكان يتشبه فى أفعاله بالمنصور إلا فى بذل المال، فإنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر، وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء فى الدين، وكان يحب المديح لاسيما من شاعر فصيح، ويجزل العطاء عليه»[1].

هذا الخلق الكريم جعل أبا العتاهية يُدِلّ عليه، ولا يباليه كثيراً، فهو يطلب إليه أن يصنع شعراً فيمتنع عليه، فيغضب منه، ويأمر بضربه ستين عصا، وبحبسه، ويضيق عليه فى الحبس، أملا فى استمالته إلى قول الشعر ليعفو عنه ويحلف ألا يخرج من محبسه حتى يقول شعرا، ولكن أبا العتاهية يستمر فى عناده ويقول: كل مملوك له حر، وامرأته طالق، إن تكلم سنة إلا بالقرآن، أو بلا إله

(١) الفخرى ص ١٧٤

إلا الله ، محمد رسول الله ؛ فيتحزن عليه الرشيد ، ويوسع عليه في الحبس ، ولا يمنع من دخول الناس عليه ، ويظل كذلك سنة لا يقول شعراً ، حتى إذا انتهى عامه هذا يقول غزلا ولكنه في امرأته .

من لقلب متيم مشتاق ... شفه شوقه وطول الفراق
طال شوقي إلى قصيدة بيتي ... ليت شعري فهل لنا من تلاق
هي حظي قد اقتصرت عليها ... من ذوات العقود والأطواق
جمع الله عاجلا بك شملي ... عن قريب وفكني من وثاق

يأخذ هذا الشعر إبراهيم الموصلي ، ويذهب به إلى الرشيد ، ويغنيه ، فيعجب الرشيد الشعر والغناء ، فيأمر بإطلاق أبي العتاهية من حبسه ، ويأمر له بكل عصا ضربها ألف درهم ويخلع عليه — يخرج أبو العتاهية من السجن ويزول ما في نفس الرشيد منه ويدخل عليه مع الشعراء فينشدون مدائحهم ، وينشد هو بعدهم :

يا من تبغي زمنا صالحا ... صلاح هارون صلاح الزمن (1)
كل لسان هو في ملكه ... بالشكر في إحسانه مرتهن

فيهتز له طرباً إعجابا بمدحه ، ويقول له . أحسنت والله ، ويجزيه دونهم جميعا ، وكان إذا دخل عليه مع غيره من الشعراء يتهيب

(1) تبغي : تطلب .

الشعراء القول معه ، و يعتقدون أن عيشهم لا يوصل إلا إذا غاب مع أنه ما كان أحسنهم شعراً ، ولعله كان أخفهم روحاً ، وأحلاهم إنشاداً ، فقد حدث أن (أجرى هارون الرشيد الخيل فجاءه فرس يقال له المشمر سابقا ، وكان الرشيد معجبا بذلك الفرس ، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه ، فبدرهم أبو العتاهية فقال:

جاء المشمر والأفراس يقدمها ... هونا على رسله منها وما انبهرا[1]

وخلف الريح حسرى وهى جاهدة ... ومر يختطف الأبصار والنظرا

فأجزل صلته . وما جسر أحد بعد أبى العتاهية أن يقول فيه شيئا[2] .

***

ويظهر أنه كان بارعا فى الغزل ، وأن صلته بعتبة رققته ، وأن صدق حبه لها جعل منه شاعراً من شعراء الغزل الذين كان يجب أن يذكرهم الأدب ، و يترجم لهم أنهم غزالون لا أنهم زاهدون، إلا أن ضياع أخباره مع عتبة ، وعدم تدوين صاحب الأغانى هذه الأخبار كما كان وعد فى موضعين من كتابه ، وكثرة ما روى من شعره فى الزهد على تفاهة أكثره كما ذكرنا فى بعض الحديث عن زهده — كل ذلك جعلهم يسمونه شاعر الزهد ، و إمام الشعراء الزاهدين

(١) هونا ، على رسله : على هينته وتؤدته (٢) الأغانى ج ٤

فى عصره ، لا شاعر الغزل ، ولعل الأيام تعثرنا على تفصيل أخباره مع عتبة حتى يمكن أن يتحول مجرى البحث فيه من شاعر زاهد إلى شاعر غزل ، ولعل أدل شىء على ذلك أن كل خلاف وقع بينه و بين الرشيد كان ناشئاً من أنه يطلب إليه أن يقول شعراً فى الغزل فلا يجيب ، فيضرب به حيناً ، و يحبسه أحيانا ، إلا أنه كان فى كثير من الحالات يتطامن و يعتذر ، ويجيب الخليفة إلى ما يريد .

وهنا يمكن أن يسأل سائل : لماذا كان الرشيد يطلب إلى أبى العتاهية أن يضع شعراً فى الغزل ، ولا يطلب إلى أبى نواس مثلا مع أن أبا نواس أشعر من أبى العتاهية وأطبع وأغزل؟ لعل ذلك راجع إلى أن غزل أبى العتاهية غزل عفيف ، و إلى أن سيرته فى الناس أنظف من سيرة أبى نواس الخليع الماجن المتهتك ، وليس معنى هذا أن أبا العتاهية كان بعيداً كل البعد عن هذه الصفات ، بل إنه كان فيه تخنث وتكسر أيضاً ، ولكن لكل منهما مذهب ، فكان أبو نواس مبالغاً ، ونواحى مجونه ذات شعب ، نساء وغلمان وخمر وزندقة ، وكان أبو العتاهية محتاطا ، فما كان عنده غير الغزل العفيف والشك فى عقيدته أحيانا ، لهذا كان الرشيد وهو خليفة المسلمين يجانب أبا نواس وأمثال أبى نواس فى نواحى سروره و يلتمسها عند أبى العتاهية حتى لا يظن الناس به الظنون .

ولعل تأكد أبي العتاهية من أنه كان لا يشاركه أحد عند الخليفة في هذه المنزلة جعله يمتنع أحياناً ، فيعاقبه الخليفة ، ولكن طمعه في العفو القريب كان يجعله لا يبالي أن يحبس أو يضرب ، أو أن يخوف بسفك الدماء ، وإطاحة الرءوس أمامه ، أو غير ذلك من ألوان التعذيب والتهديد ، لأن أبياتاً يستعطفه بها كفيلة أن تغسل صدره ، وتزيل غله ، وتجلب رضاه . لهذا يكرر حبسه ، ويكرر الرضا القريب عنه ، ولم يبعد عنه هذا الرضا إلا مرة أو مرتين ؛ وسبب هذا البعد تعنته وعناده ، وحلفه ألا يجيب ، أو حلف الخليفة ألا يعفو إلا عفواً مشروطاً بالإذعان والاستجابة ، وفيما عدا هذا فإن الخليفة كان كثير الغضب عليه ، كثير الرضا عنه — ولعل لأبي العتاهية عذراً في الامتناع عن التحدث للرشيد في الغزل خاصة ، لأنه كان كبير الأمل في أن يتزوج من عتبة جارية بيت الخلافة ، ومحبوبته التي شهر بها ، ونسبت إليه ونسب إليها ، ومع أن الرشيد وعده أن يزوجه منها ، ثم عرض عليها الأمر فاعتذرت ، فإن أبا العتاهية كان يعتقد أن الرشيد يستطيع أن يقنعها ، أو أن يرغمها ، ولا سيما أن سيدتها وحاميتها الخيزران ماتت سنة ١٧٣ هـ ، وهي لا تستطيع أن تخالف سيدها ولكنه لم يفعل فأغضب هذا أبا العتاهية ، وجعله لا يجيب في كثير من الأحيان إلى القول في الغزل إلا مرغما ، أما غير

ذلك فهو حيث يريد الخليفة ، يمدحه ويسامره ، ويرافقه فى حجه أحياناً ، وفى سفره أحيانا ، ويلازمه فى مرضه ليسرى عنه بعض ما به بحديثه وشعره ، ويتوسط بينه وبين جواريه إن غضب على إحداهن ، ثم يأمر مؤدب ولده أن يؤدبهم بشعره ليتأدبوا به ، لما فى ظاهره من عفاف وتقوى وصلاح ، ويعتب عليه إذا طالت غيبته عنه ، فللخليفة منه إذاً كل ما يريد وهو عنده كما يريد ، إلا أن يقول شعراً فى الغزل ، لأنه فجعه فى عتبة وأمات أمله ، وكان مستطيعاً أن يكون منه غير ذلك .

ومعروف أن أبا العتاهية يحب المال حباً شديداً ، ولا يدع سبيلا يوصله إليه ولو كان ذلك مفجعه فى عتبة نفسها ، وكان يغار من أى إنسان يصل إلى يده مال دون أن ينال هو منه شيئا ، ويعمل الحيلة ليصل إليه مثل الذى وصل إلى غيره أو يزيد ؛ فقد حدثوا أن الرشيد جبى من ناحية الموصل مالاً عظيما من بقايا الخراج فأمر بصرف المال أجمع إلى بعض حظاياه ، فاستعظم الناس ذلك وتحدثوا به ، فأخذ أبا العتاهية شبه الجنون ، أو صار كأن به مساً من الجن ، وقال : سبحان الله أيدفع هذا المال الجليل إلى امرأة ، ولا يتعلق كفى بشىء منه ؟ ثم دخل إلى الرشيد بعد أيام وأنشده :

الله هوّن عنـدك الد ... نيـا وبغّضها إليكا

فأبيت إلا أن تُصَغِّرَ كلَّ شيء في يديكا
ما هانت الدنيـــا على أحدٍ كما هانت عليكا[1]

ولقد اشتهر أبو العتاهية فى ديوان الخليفة ، فذاع صيته خارج ديوانه حتى عرفه النـاس ، وعرفه العرب والعجم ، وعرفه الروم والفرس ، وتمنى ملك الروم أن يُهْديه الرشيد إليه ، فلم ير الرشيد بداً من تلبية طلبه ، ولـكنه يعرض عليه ذلك خشية ألا يكون له فيـه رغبة ، فعرض عليـه ، وكان هذا الطلب بعد أن قَدِم رسول الملك إلى الرشيد ، وسأل عن أبى العتاهية فقدم إليه ، وأنشد الشعر أمامه ، فأعجب به ، ووقع كلامه من نفسه موقعـاً عظيما ، ولا سيما أن هذا الرسول كان يجيد العربية ، فلما حضر إلى بلاده ، وحدَّث ملكه حديث أبى العتاهية تمنى أن لو كان عنده ، فرد الرسولَ إلى الرشيد يسأله إياه ، ويلح فى السؤال ، ويرجوه أن يوجه به إليـه ، وجعل له أن يأخذ عنده من الرهائن ما يشاء ، ومن يشاء ؛ فلما كلم الرشيد أبا العتاهية استعفى من ذلك وأباه ، لأنه لا يفضل على البقاء فى رحاب أميره شيئا ، ولا يفضل على جواره جوارا ، ولأنه إن قبـل يكون فى ذلك معنى العقوق ؛ ثم هو يُقْدِم على بلاد لا يعرفها ، وعلى أناس لا يعرفهم ، فمصيره معهم غامض ، فقد يكون مضيئاً ، وقد يكون

---

(١) الديوان ص ٣١٣

معتما ، فماله ولهذا ؟ ولا سيما أنه يعيش فى بحبوحة من العز والكرم ، وفى نعيم الرضا والقربى ، وفى ظل خليفة لايعدل به شاعراً ولا ناثراً ، وفى مقام قد يصغردونه مقام الوزارة أحيانا . فلما علم بذلك ملك الروم رأى ألا يحرم نفسه موعظة يعظه بها ذلك الشاعر ، فطلب أن يكتب له بيتين يجعلهما على أبواب مجالسه ، وباب مدينته ، فكتب إليه :

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان عن مَلِك قد انقضى مُلْكه إلى مَلِك

* * *

عصر الرشيد وقعت فيه حوادث جسام ، سجلتها كتب التاريخ ، وشاعر الخليفة إنما يكون أول همه أن يسجل بشعره تلك الحوادث ، ليذكر فيها رأى الخليفة ، ويشيد بفضله ، و بأنه كانت تمرُّ به تلك الحوادث على جسامتها فيبدد ظلماءها بنور رأيه ، أو عظيم عمله ، فيخلد بذلك مجد الخليفة ، و يبقى على الزمان .

ومن الحوادث التى وقعت فى عصر الرشيد ، وسجلها الشعراء بعد تولية الخلافة ، ولادة ابنه الأمين فى السنة التى تولى فيها الخلافة ووفاة والدته الخيزران ، وعقد الولاية لابنه محمد الأمين ، ثم لعبد الله المأمون، ثم للقاسم مشروطة برضَى الأمين. وظهورُ الطالبيين فى مناسبات مختلفة من زمن حكمه ، وتغلبُه عليهم ، وهياجُ الفتنة بين اليمانية

والنزارية ، وهى فتنة خطيرة مثلت فى تاريخ الإسلام دوراً كبيرا ، وغزوةُ أرض الروم ، والاستيلاء على كثير من مدنهم ، ثم مصالحتهم ودخولهم فى الذمة ، وتأمين الثغور ، وتحرك الثوار فى بعض أطراف المملكة ، والقضاء عليهم ، ثم البرامكةُ وما كان لهم من عز وجاه وسلطان ، ورضَى الرشيد عنهم ، وإعلاؤهم من شأن الشعراء ، وتقريبهم إليهم ، وإغداقهم المال الذى كان يحبه أبو العتاهية عليهم. ثم ما كان من نكبتهم التى وقعت عليهم ، فقتل منهم من قتل ، وحبس من حبس ، وعذب من عذب ، وصودرت الأموال ، وكمت أفواه الشعراء فلا يذكرونهم ، فنطقت الأفواه بالإشادة بذكرهم ولم تُبال غضب الخليفة ، ورد عليهم الموالون للخليفة ، فكانت معركة الشعر ، كما كانت معركة السياسة والسيف.

كل هذه الحوادث وغيرها مما وقع فى زمن الرشيد كفيل بالشعراء أن يسجلوها بأشعارهم ، مادحين أو هاجين ، أو مهنئين أو معزين ، أو كما يشاءون ، أو كما تشاء الحوادث أن تملى عليهم. لهذا تجد شعراء هذا العصر لم يفتهم تسجيلها ، كما لم يفت مثلُه شعراءَ أى عصر وقعت فيه مثل هذه الحوادث ، فمن ذلك مثلا أن الرشيد حينما تولى الخلافة سنة ١٧٠ هجرية قلد يحيى بن خالد الوزارة وقال له: (قد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم

فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ما ترى) ، ودفع إليه خاتمه ؛ فقال إبراهيم الموصلى :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة   فلما وَلِى هارونُ أشرق نورها
بيُمْنِ أمين الله هارون ذى الندى   فهارون واليها ويحيى[1] وزيرها

وأنه حج الرشيد من مدينة السلام ، فأعطى أهل الحرمين عطاء كثيراً ، وقسم فيهم مالاً جليلا ، فقال داود بن رزين :

بهارون لاح النور فى كل بلدة   وقام به فى عدل سيرته النهج
إمام بذات الله أصبح شغلُهُ   وأكثرُ ما يُعْنَى به الغزوُ والحج
تَضيق عيون الناس عن نور وجهه   إذا ما بدا للناس منظرُه البَلْج[2]
وإن أمير الله هارونَ ذا الندى   يُنيلُ الذى يرجوه أضعافَ ما يرجو

وأنه لما عَقَد لابنه محمد بمدينة السلام ولايةَ عَهْدِ المسلمين من بعده ، وأخَذ له بيعة القواد والجند — قال سَلْم الخاسر :

قد وَفَّق الله الخليفة إذ بنى   بيت الخلافة للهِجان الأزهر[3]
قد بايع الثَّقلان فى مهد الهدى   لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر[4]

وأنه لما ظهر يحيى بن عبد الله العلوى بالديلم، واشتدت شوكته

(١) يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد (٢) البلج : المشرق المضىء (٣) الهجان من كل شىء : خياره وخالصه . الأزهر . المنير المشرق اللون أو الوحيد (٤) الثقلان : الجن والإنس

وقوى أمره ، ونزع الناس إليه من الأمصار ، وندب إليه الرشيد الفضل بن يحيي ومعه صناديد القواد ، وانتهى الأمر بعدول يحيي والدخول فى الطاعة — قال فى ذلك مروان بن أبى حفصة :

ظفرت فلا شُلَّت يَدٌ بَرْمكية
رَتَقْت بها الفتق الذى بين هاشم[1]
على حين أعيا الراتقين التئامُهم
فكفوا ، وقالوا : ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة
من المجد باق ذِكْرُها فى المواسم
وما زال قِدْح الملك يخرج فائزاً
لكم كلما ضُمّت قِداحُ المساهم[2]

وأنه لما قامت الفتنة بين اليمانية والنزارية على العصبية من بعضهم لبعض ، فقتل خلق كثير — أوفد إليهم الرشيد موسى بن يحيي ابن خالد أصلح بين الفريقين ، فسكنت الفتنة ، واستقام أمرها ؛ فقال اسحاق الخزيمى :

من مبلغ يحيي ودون لقائه　　　زَأَراتُ كل خَنابس هَمْهام[3]

---

(١) شلت اليد بالبناء للفاعل والمفعول : يبست وأصابها الشلل
(٢) القدح : سهم الميسر . المساهم : المقارع بالقداح
(٣) الهمهام : السيد الشجاع السخى ، وكذلك الخنابس

يا راعى الإســلام غــير مفرِّط ... فى لين مغتبط وطيب مشام (١)
تَغذَى مشاربه ويُسقَى شَرْبُه ... ويبيت بالرَّبوات والأعلام (٢)
حــتى تَنَخْنَخَ ضاربًا بجــرانه ... ورست مراسيه بدار سلام (٣)
فلكل ثغر حارس من قلبــه ... وشعاع طَرْف ما يُفَــتَّر سام (٤)

وأنه حج الرشيد سـنة ١٨٢ هـ من الرقة ، وأخرج معه ابنيه محمداً الأمين، وعبد الله المأمون، وَلِيَّىْ عهده ،ففرق أعطياته فى المدينة ثم فى مكة ، وبايع للمأمون بعد أن كان بايع للأمين ، فقال سلم الخـاسر :

بايع هارونــ إمام الهدى ... لذى الحجا والخلق الفاضل
المخـلف المتلف أمــواله ... والضامن الأثقال للحـامل
والعـالم النـاقد فى علمــه ... والحاكم الفاضل والعادل
والراتق الفاتق حلف الهدى ... والقـائل الصـادق والفاعل
لخـير عبـاس إذا حُصِّلوا ... والمفضل المجدى على العائل
أبرهم براً وأولاهمــــــــو ... بالعُرف عند الحَدَث النازل
لمشبه المنصــور فى ملــكه ... إذا تدجَّت ظلمة البـاطل
فتمّ بالمأمونــ نور الهدى ... وانكشف الجهل عن الجاهل

(١) اغتبط بالبناء للفاعل والمفعول : كان فى مسرة وحسن حال (٢) تغذى مشاربه : تطيب . الشرب : جمع شارب (٣) تنخنخ : قال للابل : نخ نخ، لتبرك. والجران : مقدم عنق البعير (٤) يفتر : يضعف جفنه .

ثم بايع الرشيد لابنه القاسم وسماه المؤتمن ، فقال عبد الملك ابن صالح :

حب الخليفة حب لا يدين به ... من هو لله عاص يَعْمَل الفِتَنا[1]
الله قلد هاروناً سياستنا ... لما اصطفاه فأحيا الدين والسُّننا
وقلد الأرضَ هارونٌ لرأفته ... بنا أميناً ومأموناً ومؤتَمنا

وأرجف الناس بعد هذه البيعة ، فقال بعضهم : قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم قد ألقى بينهم بِأسْهُمٍ ، وعاقبةُ ما صَنع فى ذلك مَخُوفة على الرعية ، وقالت الشعراء فى ذلك : فقال بعضهم :

أقول لِغُمَّة فى النفس منى ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم ... فتَلْقَىْ ما سيمنعك الرقادا
فإنكِ إن بقيتِ رأيتِ أمْراً ... يطيل لكِ الكآبة والسُّهادا
رأى الملك المهذّب شرَّ رأى ... بقسمته الخلافة والبلادا
رأى مالو تَعَقَّبه بعلم ... لَبَيَّض مِن مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهمُ ويبتذل الودادا
فقد غرس العداوةَ غيرِ آلٍ ... وأورث شمْل ألفتهم بدادا[2]
وألقحَ بينهم حرباً عَواناً ... وأسلس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكُرب الشدادا

(١) ورواية الطبرى «كان» فى موضع «هو» (٢) غير آل : غير مبطىء

وألبسها بلاء غير فانٍ ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهمُ بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزرُ بلائهم أبداً عليه ... أغياً كان ذلك أم رشادا

وفى نكبة البرامكة شعر الرقاشي ، وسيف بن إبراهيم ، وابن أبى كريمة ، والعطوى ، وعلى بن أبى معاذ ، وسلم الخاسر ، وصالح الأعرابى ، وأشجع السلمى ، ودعبل ، ومنصور اليمانى ، ثم أبو العتاهية .

وإذا كان أبو العتاهية أقرب الشعراء جميعاً إلى قلب الرشيد — وجب أن يكون هو أسبقهم إلى الإشادة بفضله ، وتسجيل الحوادث بشعره ، فهل تخلَّف أبو العتاهية عن هذا الركب ؟ وهل سار أمامه حيناً ، وسار خلفه أحياناً ، وانقطع عنه أحياناً ؟ .

الذى توحى به الأخبار المرويّة ، أنه يجرى فى حلبة الشعراء قليلا ، ويختفى عنهم كثيراً ، والذى يجب أن يستنبطه الباحث هو أن أبا العتاهية الذى صحب الرشيد بعض الوقت قبل خلافته حين كان ولياً للعهد ، وحين كان صبياً ، وغاضب من أجله الهادى ، ثم انقطع عنه زمن خلافة الهادى التى لم تدم أكثر من عام و بعض عام — لم يمح من قلبه هواه للرشيد ، بل لم يكد يتأثر بالجفوة المصطنعة حتى مات الهادى ، واستُخْلف الرشيد ، فعاد هواه إلى الاتصال به، وظل

ينعم فى خلافته ثلاثة وعشرين عاماً وأشهراً ، لهذا نعجب كل العجب أننا لا نجد له شعراً يتناسب مع صلته بالرشيد ويتناسب مع طول محبته له، ويتناسب مع تفضيله إياه على الشعراء، وإجازته من دونهم ويتناسب مع الإغداق وكثرة العطاء ، ولا نجد له إلا أبياتاً منتثرة ، ومقطوعات قصيرة ، يقولها فى مناسبات لا يستدعى بعضها التخليد أو التمجيد فى حين نجد أن غيره من الشعراء كانت صلتهم بالرشيد دون صلته ، تتبعوا الحوادث البارزة فى عصره ، وقد قدمنا ذكر بعضها وسجلوها تسجيلا فى شعرهم ، فبقيت خالدة بهذا الشعر ، كما خلد بها الشعر .

أما أبو العتاهية فنحن لا نشك فى أنه كان يحب الرشيد ، وأن الرشيد كان يحبه ، ولا بد أنه كان أسبق الشعراء إلى تمجيده ومدحه وأن شعره فى الرشيد كان من أجمل شعره وأقواه ، إلا أن هذا الشعر لم يُرو ، فضاع كما ضاع أكثر شعره فى عتبة، أوكما ضاع أكثر شعره فى غير الزهد ، ولعله رُوِى وَدُوِّن ، ولكنه ما زال إلى اليوم مطوياً فى خزانة من خزانات الكتب فى الشرق أو فى الغرب ، وستكشف عنه الأيام ، أولعله رُوِى ودُوِّن ، وظل معروفاً بين الشعراء وغير الشعراء حتى نكبة مدينة بغداد ، فتلف فيما تلف من ذخائر الكتب التى لو بقيت لغيرت كثيراً من وجه التاريخ والأدب والبحث

أو لعله روى ودون ، ثم نقل مع مانقل من خزائن بغداد إلى خزائن الأندلس ، وظل بها إلى أن امتدت إليه يد الأندلسيين ، أو امتدت إليه يد علماء أوروبا ، فنقلوه إلى بعض خزائنهم ، وستكشف عنه الأيام . ولمعترض أن يقول: لماذا بقى شعره فى الزهد وضاع شعره فى غير الزهد إلا القليل الأقل ؟ وفى الحق أن شعره فى الزهد ضاع كثيره أيضاً، ولم يبق إلاقليله ، إلا أن المروى منه أكثر من المروى من شعره فى الأبواب الأخرى ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن الشعر الزاهد من شعره ، كان يرويه عنه كثير من الناس ، فتعدد رواته ، ثم دون فى القرن الخامس حيث جمعه الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله النمرى القرطبي المتوفى سنة ٤٢٣ هجرية بمدينة شاطبة ، وتعصب له ناس من المغرمين وحفظوه ليردوا به فى مجالسهم على رواة أشعار المجون والخلاعة محاولين أن يصرفوهم عما هم عليه من الغواية والضلال ، ويدعوهم إلى التقوى والصلاح ؟ و إن تعدد الرواة جعل الشعر بمنجاة من حريق بغداد ، أو من نكبة الأندلس ، أو من أى ناحية من النواحى ، التى تقدر أن الكثرة الكثيرة من شعره فقدت فيها ، ووصل إلينا ذلك القليل ، و إن كنا نشك فى كثير منه ، ونشك فى أنه لأبى العتاهية ، ونرجح أنهم دسوا عليه شعراً زاهداً ، كما دسّوا على أبى نواس شعراً خليعاً ماجناً .

وهذا الرجل كانت له صلة قديمة بالخلفاء فهو فى بغداد من زمن المنصور. واتصل بأولاده ، ولم يتصل به هو لأنه كان ضنيناً على الشعراء ، مهما بالغوا فى مدحه ، ومهما بلغوا من الإجادة فيه ، إلا قليلا منهم ، وفى مناسبات نادرة ، لهذا اتصل بابنه صالح وحصل منه على مائة ألف درهم ، وهو يحدثنا بهـذا ويقول : كنت منقطعاً لصالح المسكين ، وهو ابن أبى جعفر المنصور ، فأصبت فى ناحيته مائة ألف درهم ، وكان لى وُدًّا وصديقاً ، فجئته يوما وكان لى فى مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيرى ، فنظرت إليه ، وقد قَصَّر بى ؛ وعاودته ثانية ، فـكانت حالهُ تلك ، ورأيت نظره إلىّ ثقيلا فنهضت وقلت :

أرانى صـالح بغضـا فأظهرت له بغضـــا
ولا والله لا ينقُــضُ م إلا زدته نقْضـــا
وإلا زدته مقتـــاً وإلا زدتـه رفضـا
ألا يا مفســد الودِ وكان الودُّ لى محْضـا
تغَضَّبْت من الريح فمـا أطلب أن ترضى
لئن كانـ لك المال م المصفّى إنّ لى عِرْضـا

قال أبو العتاهية : فنمى الـكلام إلى صالح فنادى بالعـداوة ، فقلت فيه :

مددتُ لِمُعْرض حبـلا طويلا كأطولِ ما يكون من الحبـال

حبـال بالصريمة ليس تفـنَى مُوَصَّلة على عـــــدد الرمال
فـــلا تنظر إلىّ ولا تَرِدنى ولا تَقْرُب حبـالك من حبالى
فليت الردم من يأجوج بينى و بينـك مثبتاً أخرَى الليـالى
فَـكَرِّش إن أردت لنا كلاماً ونقطع قِحْفَ رأسك بالقتال (١)

فهو عاش فى نعيم الخلفاء أكثر من نصف قـرن ، يمدحهم ، وينال عطاءهم ، فلو أن له فى كل شهر قصيدة واحدة يمدح بهـا أو يهنىء أو يعزى أو يعتب ، وقريحته ينحدر منها الشعر انحدار الماء — لكان له من ذلك كله ديوان عظيم — وإن تناسينا ماله فى الزهد والغزل والهجاء .

ولم نر لأبى العتاهية حوادث سجلها لهارون الرشـيد ، ومدحه بها ، إلا أنه لما عقد العهد لولاية بنيه الثلاثة قال :

رَحَلْتُ عن الربع المحيل قَعُودى إلى ذى زُحوف جَمَّـةٍ وجنود
وراع يراعى الليلَ فى حِفْظ أمة يدافع عنها الشر غَيْرَ رَقـود
بألوية ، جبريلُ يقدُمُ أهلَهـا ورايات نَصْر حـوله بنـود
تجـافى عن الدنيا فأيقن أنهـا مفارِقـة ليست بدار خـلود
وشدَّ عُرا الإسـلام منه بفتية ثلاثة أمـلاك ولاة عهـود
همو خـير أولاد ، لهم خير والد له خـيرُ آباء مضت وجـدود
بنو المصطفى هارون حول سريره فخـيرُ قيـامٍ حـوله وقعـود

(١) كرش : قطب وجهك . القحف : العظم الذى فوق الدماغ

تُقلّب ألحاظُ المهابة بينهم عيونَ ظباء فى قلوب أسود
جدودٌ هموشمس أتت فى أهلة تبدَّت لراء فى نجوم سعود

ولما غزا الرشيد نقفورَ ملكَ الروم وانقاد إلى الرشيد ، وحمله الأموال والهدايا والضريبة قال يهنئه :

إمام الهدى أصبحت بالدِّين معنياً
وأصبحت تَسْقى كل مستمطر رِيا
لك اسمان شقَّا من رشاد ومن هدى
فأنت الذى تُدعى رشيداً ومهديا
إذا ما سخطت الشىء كان مُسَخَّطا
وإن ترض شيئاً كان فى الناس مرضيا
بسطت لنا شرقاً وغرباً يد العلا
فأوسعت شرقياً وأوسعت غربيا
ووشَّيتَ وجهَ الأرض بالجود والندى
فأصبح وجهُ الأرض بالجود مغشيا
وأنت أميرالمؤمنين فتى التقى
نَشَرْتَ من الإحسان ما كان مطويا
قضى الله أن صفَّى لهارونَ ملكه
وكان قضاء الله في الخلق مقضيا

تجلببت الدنيا لهارون بالرضى

وأصبح نقفور لهارون ذميا

ولما نقض نقفور ما كان أعطى من الانقياد ، تجهز له الرشيد وغزاه ، فنزل على هرقلة ودخلها بالسيف ، فقال أبو العتاهية :

ألا نادت هرقلة بالخراب من الملك الموفق للصواب

غدا هارون يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكرة العصاب[1]

ورايات يحل النصر فيها تمر كأنها مر السحاب

أمير المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالغنيمة والإياب

وهذه كلها مقطوعات لعلها كانت قصائد طويلة ضاعت فيما ضاع من شعره ، ومع ذلك فإنا نؤمن بأن هذا الشعر دون شعر أمثاله من شعراء عصره ، ودون شعر غيره من الشعراء الذين نظموا فى كبريات الحوادث التى تشبه هذه الحوادث ، ولكنها وقعت فى عصر غير عصره ، سبقه ذلك العصر أو تأخر عنه ؛ فمن الشعراء المعاصرين مثلا مروان بن أبى حفصة ، وقد تقدم طرف من شعره ؛ وممن جاءوا بعده مثلا فى قصيدته المشهورة التى وصف فيها فتح عمورية زمن المعتصم ، فإن هذه القصيدة وحدها ــ فيما أرى ــ ترجح كثيراً مما وصل إلينا من شعر أبى العتاهية ؛ وكذلك المتنبى فى وصف وقائع سيف

(١) المذكرة : السيف الكثير الماء .

الدولة بن حمدان فإن شعره معروف مقدور ؛ فقصيدته حين ظفر ببني كلاب (لغيرك راعياً عبث الذئاب) من عيون الشعر العربي ، ولا أبالغ إذا قلت : إن لأبي الطيب قصائد خالدات لا تقل عن هذه القصيدة ، وكل شعره في سيف الدولة من هذا النوع الرفيع ، وكان لايدع مناسبة يقول فيها شعراً إلا قال وأجاد فهو يهنىء بعيد الأضحى وعيد الفطر ، وتموت أخته وعمته ووالدته فيعزيه في كل منهن عزاء يسيل الدموع ويثير الوجد ، بل يموت عبده يماك ، وكان سيف الدولة يعزه فيخلده المتنبي بشعره . وينتصر على بني مرعش وبني كلاب وبني عقيل وقشير فيخلد كل ذلك في شعره ؛ ولو شئنا أن نستقصي ما كان للمتنبي في سيف الدولة لخرج الاستطراد عما نحن معالجوه من صلة أبي العتاهية بالرشيد ، ونحن نرجح أن أبا العتاهية لم يدع حادثة يقول فيها الشعراء شعراً إلا قال فيها ، وأرضى الرشيد ، وأخذ جائزته . ولا نريد أن نقول إن شعره كان في قوة شعر أبي تمام والمتنبي ومن في مستواهما ، ولكنه كان شعراً خيراً من شعره في الزهد ، لأنه كان في مدحه ينافس غيره من الشعراء في الإجادة لينال سَنِيَّ العطاء .

ومن عجيب أمر أبي العتاهية أنه كان يجري على طريقة غير طريقة شعراء عصره أو أكثرهم ، فإنه قلما نجد في هذا العصر

شاعراً جافى البرامكة ، وباعد بينه وبينهم : قوم أغنياء يملكون الضياع الكثيرة ، والقصور الشاهقة ، والخزائن العامرة ، وهم كرماء يغدقون على الناس عامة ، والشعراء خاصة ، إغداقاً أى إغداق ، وهم بعد هذا كله أصحاب السلطان،فانتجع الشعراء رحابهم ومدحوهم ونالوا سَنِىَّ جوائزهم ، وأثرى كثيرهم من رشح أيديهم ، وأبوالعتاهية يحب المال ، ولايتورع عن طلبه من أهل الخير ، وقد كان له فى كرم البرامكة مرتع خصيب ، ينال منه ما يشاء ، فلم نجد له مديحاً فيهم يناسب مكانتهم ، فكانوا يبغضونه ، ويكرهون أن يسمعوه ، مع جمال إلقائه ، وحسن إنشاده ، ويكرهون أن يعطوه مع أنهم كانوا يبعثرون المال ، ولا يحسبون له حساباً . فبم نعلل هـذا ؟ ألأنه كان منقطعاً إلى الرشيد دونهم ؟ أم لأنه كان يدل على الرشيد ؟ أم لأنه كان يظهر الزهد ويبطن غيره فى رأيهم؟ أم لأنه كان متعصباً مسلماً أم لهذا كله ؟ أم له ولغيره ؟

وعلى أى حال فإن الذى ثبت لنا أن الفضل بن يحيى كان يبغضه أشد البغض ، وينكره أشد الإنكار ، فكان لا يحب أن يسمعه ، ولا يحب أن يراه ، ولكن أبا العتاهية أحب أن ينال من رفده ، فذهب إلى صديق للفضل يحبه ويأنس إليه ، وسأله أن يكلمه فيه ، فاعتذر الصديق ، لأنه يعرف رأى الفضل فيه ، وعرض عليه ماشاء

من ماله هو، أما أن يكلم الفضل فلا، فانصرف أبو العتاهية مغضباً، وأقام أياماً لا يلقاه، ثم كتب إليه:

أقلل زيارتك الصديقَ ولا تطل ... إتيانه فتَلِجَّ فى هِجرانه
إن الصديق يُلج فى غِشيانه ... لصديقه فيملّ من غِشيانه
حتى تراه بعد طول مسرة ... وكأنه مُتَبَرِّم بمكانه
وأقلُّ ما يلقى الفتى ثقلا على ... إخوانه ما كف عن إخوانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه ... رجل تُنُقِّص واستُخِف بشأنه

فلما قرأ الصديق الأبيات قال: سبحان الله! أتهجرنى لمنعى إياك شيئاً تعلم أنى ابتذلت نفسى له، وتنسى مودتى وأخوتى، ومن دون ما بينى وبينك ما أوجب عليك أن تعذرنى؟ فكتب إليه:

أهل التخلق، لو يدوم تَخَلُّق ... لسكنت ظلَّ جناح من يتخلق
ما الناس فى الإمساك إلا واحد ... فبأيهم إن حَصَّلوا أتعلق
هذا زمان قد تعود أهله ... تيه الملوك وفعل من يتصدق

فلما أصبح الصباح، حمل الصديق هذه الأبيات إلى الفضل ابن يحيى، وحدثه بالحديث، فقال له: وحياتى ما على الأرض أبغض إلىّ من إسداء عارفة إلى أبى العتاهية، لأنه ممن ليس يظهر عليه أثر صنيعة، وقد قضيت حاجته لك؛ فرجع الصديق يحمل حاجة أبى العتاهية فقال:

جزى الله عنى صالحـــا بوفائه ... وأضعف أضعافا له فى جزائه[1]

صديق إذا ماجئت أبغيه حاجة ... رجعت بما أبغى ووجهى بمائه

ورغم أن جعفر بن يحيى أخا الفضـل كان يحب شعره ، ويثنى عليه ، ويمدحه فى غيبته ، ويذكره بالخير أمام الرشـيد ، ويفضله على غيره من الشعراء — فإنا لم نر جعفراً أعطاه يوما ما كان يعطيه غيره من الشعراء ، أو بعض ما كان يعطيـه غيره ، فكيف نوفق بين هذا و بين أن يحرمه حبيبه وهو المال ؟ لا بد أن ذلك كان من حسن السياسة التى انتهجها جعفر مع الرشيد ، فإنه كان يعلم أن الرشيد يحب هذا الشـاعر ، ويجالسه ، ويسمر معه ، ويختـاره ليؤانسه فى مرضه ووحدته ، فماذا عليه إذا جارى الرشيد فى عاطفته ، ولم يصده عنه ، ولا سيما أنه فى غنى عن أن يمدحه مثلُ أبى العتاهية ، وعنده الفحول يُشيدون بذكره ، ويكادون يسبّحون بحمـده ؟ ! لا ضير عليه ، إذاً ، أن يجلس مع الرشيد ، فيراه يغضب على جارية له ثم يندم ، فيقول :

صدَّ عنى إذ رآنى مُفْتَتَن ... وأطال الصد لمـا أن فَطِن

كان مملوكى فأضحى مالكى ... إن هذا من أعاجيب الزمن

---

(١) هو صالح الشهرزورى رسول أبى العتاهية إلى الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى

ثم يطلب الرشيد إلى جعفر أن يطلب له من الشعراء من يزيد على هذين البيتين ، فيشير عليه جعفر بأبى العتاهية ، فيبعث إليه الرشيد ، وهو فى السجن فيكتب تحت البيتين :

عزة الحب أرته ذلتى ... فى هواه وله وجه حَسَن
ولهذا صرت مملوكا له ... ولهذا شاع مابى وعَلَن

فيسر هذا الكلام الرشيد ، ويجزل صلته ؛ والفضل فى ذلك لجعفر.

ولا ضير عليه أيضاً أن يُدِل عليه أبو العتاهية ، ويطلب إليه أن يسمع الشعراء ينشدونه فى مجلسه ، وكان كثيراً ما يجلس فى مجلس جعفر دون الفضل .

وكان الفضل بن الربيع من أبى العتاهية غير الفضل بن يحيى ؛ فإنه كان يحبه ويكرمه ، ويقربه إليه ، ويشهد له عند الرشيد ، فيقدر له ذلك ، ويمدحه بمدائح لا تقل عن مدحه للرشيد أوغيره من الخلفاء وسنعرض لها فى موضع آخر .

ومن مدائح أبى العتاهية فى الرشيد قوله :

أمينَ الله أمْنك خير أمْن ... عليك من التقى فيه لباس
تُساس من السماء بكل فضل ... وأنت به تسوس كما تساس
كأن الخلق ركب فيه رُوح ... له جسد وأنت عليه راس[1]

---

(١) الكامل للمبرد .

وقوله :

ألا إن حزب الله ليس بمعجز
وأنصاره فى منعـة المتحرِّز
أبى الله أن يُعصى لهارون أمرُه
وذلَّت له طوعاً يد المتعـزِّز
إذا الراية السوداء راحت أو اغتدت
إلى هارب منها فليس بمعجز
أطاعت لهارون العُداةُ لدى الوغى
وكبَّر للإسلام بُنـدارُ هُرْمز (١)

وقوله :

فما مثل بَيْتَيْهِ فى العالمين أعز بناء ولا أرفع
فبيت بناه له هاشم وبيت بناه له تُبَّع
ولو حاول الدهر مافى يديه لعاد وعِرْنِينُه أجْدع

(١) البندار : التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء ، وجمعه بنادرة . الهرمز : الكبير من ملوك العجم .

المدة التى قضاها الأمين خليفة كانت الدولة فيها مضطربة أشد الاضطراب على قصرها؛ فالخليفة رجل كثير اللهو واللعب، مشغول عن تدبير المملكة بملاذه، حتى قال بعض المؤرخين عنه: لم نجد للأمين شيئاً من سيرته مستحسناً فنذكره[1]، والفضل بن الربيع يغريه بالمأمون، ويزين له خلعه من الخلافة، ويرسل الجيوش لمحاربته، لا حبًّا للأمين، ولا نُصْرةً للدين، ولكن خوفاً على نفسه من أن يقع فى يد المأمون، والمأمون لا يسالم ولا يدارى، ولكنه يخلع العذار، وينتقض على الأمين، ويحارب جيوشه، حتى ينتصر عليه؛ والفضل بن سهل يدبر للمأمون، ويغريه بأخيه، ليكون له من الأمر ما كان للبرامكة من قبل، ويعزل الأمين أخاه القاسم، الخليفة المعتصم فيما بعد، عن جميع ما كان ولّاه أبوه الرشيد، ويحرمه ولاية العهد مع المأمون، ويأمره بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمارة وولاية العهد، فيدبر القاسم المكايد له؛ وهكذا كانت السنوات الأربع والشهور القليلة التى مرت بين موت الرشيد وسقوط

(١) ابن الأثير.

بغداد فى يد جند المأمون مسرحا للفتن والقلاقل التى أرهبت الناس وفزّعتهم ، ولعل الذى كان لا يحس هـذا الهول المخيم على الدولة ، وهذا الفساد الذى يحيط بهـا من كل جانب — إنمـا هو الأمين ، وحاشيته من الخصيان الذين ابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيّرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقوام طعـامه وشرابه ، وأمره ونهيه . . . ووجه إلى جميع البلاد فى طلب الملهين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس فى ابتيـاع فُره الدواب ، وأخـذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته ، وأهل بيته وقواده، واستخف بهم وقسم ما فى بيوت الأموال ، وما بحضرته من الجوهر ، فى خصيانه وجلسائه . ومحدثيه ... وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه ... وأمر بعمل خمس حرّاقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعُقاب والحيـة والفرس ، وأنفق فى عملهـا مالا عظيما[1] ، وقد كان من الذين يحيطون به جماعة من الشعراء ، يمـدحونه ويمجدونه ، ويصفون مجالس لهوه وأنسه ؛ منهم أبو نواس الذي قال فيه بعد أن أطلقـه من الحبس ، وكان الرشـيد حبسه لهجائه مضر وتفضيل اليمنية عليهم :

---

(١) الطبرى ج ١٠

سخّر الله للأمين مطــايا لم تسخّر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سِرْنَ براً سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يهوى أهوبَ الشدق كالح الأنياب (١)
لا يعانيــه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث تمرُّ مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زَوَر ومنسر وجناحيـــــن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمــير وأبقا ه وأبقى له رداء الشبـاب
ملك تقصر المدائح عنــه هاشميٌّ موفــق للصــواب

ومنهم الحسين بن الضحاك نديمه وجليسه الذى قال يرثيه :

ياخير أسرته وإن زعمــوا إنى عليك لمُثبَتٌ أسف (٢)
الله يعــلم أن لى كبداً حَرَّى عليك ومقلة تكِف (٣)
ولئن شَجيتُ بما رزيتَ به إنى لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لســـــد فاقتنا أبداً وكان لغــيرك التلف

---

(١) أهوب الشدق : واسع الشدق.
(٢) المثبت : بفتح العين ، من لا حراك به من المرض ، وبكسرها من ثقل فلم يبرح الفراش .
(٣) تكف : تدمع .

فلقد خَلَفْت خلائفاً سلفوا ولسوف يعوز بعدك الخلَف

لابات رهطك بعد هفوتهم إنى لرهطك بعدها شنف [1]

هتكوا بحرمتك التى هُتكت حُرَمَ الرسول ودونها السُّجُف [2]

وثبَتْ أقاربُك التى خذلت وجميعُها بالذل معترف

لم يفعلوا بالشَّطِّ إذ حضروا ماتفعل العَيْرانَة الأُنف [3]

تركوا حريم أبيهمُ ثَقَلا والمحصنات صوارخ هُتُفُ [4]

أبدت مُخَلْخَلها على دَهَش أبكارُهن ورنَّت النُّصَف

سُلِبَتْ معاجرُهن واجْتُلِبت ذات النقاب ونوزع الشُّنَف [5]

فكأنهن خلالَ منتهَب درٌّ تكشَّفَ دونه الصَّدف

ملك تخوَّن ملكَه قَدر فوهى وصرفُ الدهر مختلف

هيهات بعدك أن يدوم لنا عز ، وأن يبقى لنا شرف

أفبعد عهد الله نقتله والقتل بعد أمانة سَرَف [6]

---

(١) شنف : مبغض .

(٢) السجف : جمع سجاف وهو الستر أو السجفان المقرونان بينهما فرجة

(٣) الأنف : الناقة المشتكية من البرة ، وفى الحديث المؤمن كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن استنيخ استناخ . فهوذلول منقاد وليس يمتنع على قائدة فى شىء العيرانة : الناقة السريعة النشيطة سميت كذلك لكثرة تطوافها وحركتها.

(٤) الثقل: متاع المسافر وحشمه وكل شىء خطير نفيس مصون له قدر ووزن

(٥) الشنف : ماعلق فى أعلى الأذن. المعاجر: جمع معجر كنبر وهو ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة والمرأة تلفه على استدارة رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابها .

(٦) سرف : خطأ وغفلة .

فستعرفون غداً بعاقبة عزِّ الإله فأوْرِدوا وقفوا

يامن يخونُ نومه أرق هَدَتْ الشجون وقلبه لَهَف[1]

قد كنت لى أملا غَنِيتُ به فمضى وحلّ محلّه الأسف

مَرَج النِّظام وعاد منكرنا عُرْفا وأنكِر بعدك العُرُف

فالشمل منتشر لفقدك والد نيا سُدًى والبال مُنْكسِف[2]

فأين كان صاحبنا أبو العتاهية فى هذه الفترة ؟ أهجر بغداد ورحل إلى الحجاز وبقى فيه هذه المدة كلها أو بعضها حتى لا يفسد عليه زهده؟ أم وقف من هذه الحوادث صامتاً بعيداً عن دار الخلافة ، صابراً على أن المال لا ينصب إليه انصباباً ، أم انحاز إلى المأمون فى خراسان وعاد معه إلى بغداد بعد قتل الأمين فى ركابه أو فى غير ركابه ؟ إن المراجع لا تسعفنا على أن نتكهن بشىء من هذا ، ولكننا نرجح أنه كان فى بغداد ، وأن الأمين كان يصنع ما يصنع على مرأى منه ومسمع ، ولا يجرؤ أن يقول للخليفة لم فعلت ؟ ولكننا لا نعرف أنه مدحه ، أو أنه أصاب من رفده، كما كان يصيب من رفد من سبقه من الخلفاء، وكل الذى عرفناه أن السيدة زبيدة أمّ الأمين حينما قتل ابنها رأت أن تكتب إلى المأمون ، ولجأت إلى أبى العتاهية ليكتب على لسانها فقال :

---

(١) لهف : متحزن متحسر مغتاظ مكروب .
(٢) كاسف البال : سيء الحال .

ألا إن صرف الدهر يُدْنى ويبعد ... ويمتع بالألاّف طوراً وينفد
أصابت بريب الدهر منى يدى يدى ... فسلمت بالأقدار والله أحمد
أقول لريب الدهر إن ذهبت يد ... فقد بقيت ، والحمد ، لله لى يد
إذا بقى المأمون لى فالرشيد لى ... ولى جعفر لم يفتقد ومحمد

وقال :

لخير إمام قام من خير عُنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين ومُلْكهم ... إلى الملك المأمون من أمِّ جعفر
كتبت وعينى تستهل دموعها ... إليك ابن عمى من جفونى ومحجرى
أُصِبْتُ بأدنى الناس منك قرابة ... ومن هُوَ لى روحى فَعِيلَ تَصَبّرى
أتى طاهر ،لا طهَّر الله طاهراً ، ... فما طاهر فى فعله بمطهَّر
فأبرزنى مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالى وخرَّب أدْوُرى
يعز على هارون ما قد لقيته ... وما مرّ لى من ناقص الخَلق أعور
تذكر أمير المؤمنين قرابتى ... فديتك من ذى قُرْبة متذكر
فإن يك ما أبدى لأمر أمرتَه ... صبرتُ لأمر من قدير مقدر
وإن تكن الأخرى فغير مدافَع ... إليك أمير المؤمنين فغيِّر (١)

---

(١) بعض الروايات على أن هذه الأبيات لزيدة نفسها ، فإنها حينما بلغها مقتل الأمين — أمرت بثيابها فسودت ، ولبست مسحاً من شعر ، ودعت بدواة وقرطاس ، وكتبت الأبياتِ وأرسلتها إلى المأمون ، ماعدا البيتين : الثامن والعاشر

ونرجح أنه ما كان طول هذه المدة صامتا ، ولكنه شعر ، واستعطى فأعطى ، لأنه لا يطيق صبراً على ألا يجود عليه الخليفة بمال ، ولكن شعره فى هذه الحقبة من الزمان وفى الخليفة الأمين خاصة ضاع مع ما ضاع من شعره ، وأن صلته بالفضل بن الربيع قديمة من عهد الرشيد ، فلا بد أن تكون متصلة فى عهد الأمين ؛ فقد رووا أن حبيب بن الجهم النميرى قال : حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتى وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد قبلى ، فإذا عوْن حاجبه قد جاء فقال : هذا أبو العتاهية يسلم عليك ، وقد قدم من مكة ، فقال : أعفنى منه الساعة يشغلنى عن ركوبى ؛ فخرج إليه عون فقال إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين ، فأخرج من كمّه نعلا عليها شراك فقال : قل له إن أبا العتاهية قد أهداها إليك ، جعلت فداك قال : فدخلت بها . فقال : ما هذه ؟ فقلت : نعل وعلى شراكها مكتوب كتاب . قال : يا حبيب ، اقرأه علىّ . فقرأته فإذا هو :

نعل بعثت بها ليلبسها قرم بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشرّكها خدى جعلت شراكها خدى

فقال لحاجبه عون : احملها معنا . فحملها . فلما دخل على الأمين قال له يا عباسىّ ، ما هذه النعل ؟ فقال أهداها إلى أبو العتاهية ، وكتب عليها بيتين ، وكان أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف بها

لا بسها فقال : وما هما ؟ فقرأهما فقال : أجاد وما سبقه إلى هذا المعنى أحد ، هبوا له عشرة آلاف درهم ، فأخرجت فى بدرة وهو راكب على حماره ، فقبضها وانصرف .

ولأمرٍ مّا لجأت السيدة زبيدة أم الأمين إلى أبى العتاهية ليقول على لسانها شعراً ترسله إلى المأمون ، والمأمون حينما يسمع ذلك الشعر يعجبه ويؤثر فيه ، ويوجه إليها بحباء جزيل ، وكتب إليها يسألها القدومَ عليه ، فلم تأته فى ذلك الوقت ، وقبلت منه ما وجّه إليها ، فلما صارت إليه بعد ذلك قالت : الحمد لله ، لئن فقدت ابنا خليفة ، فلقد اعتضت ابنا خليفة ، ما خسر من اعتاض مثلك ، وما ثكلت أمٌّ ملأت يديها منك ، فأسألُه أجراً على ما أخذ ، وإمتاعا بما وهب . فقال لها : من قائل الأبيات ؟ فقالت : أبو العتاهية ، قال : وكم أمرت له ؟ قالت : عشرين ألف درهم . قال المأمون : وقد أمرنا له بمثل ذلك ، واعتذر إليها من قتل أخيه محمد الأمين ، وعزّاها ، وأكثر البكاء معها .

فبلغ من إعجابه بهذا الشعر أن سأل عن صاحبه ، فذُكر له ، فأمر بإعطائه عشرين ألف درهم ، كما أعطته زبيدة عشرين ألفاً من قبل ، ولو أنه كانت زادته لزاده المأمون على زيادتها .

ولعله من ذلك الحين بدأ أبو العتاهية يتصل بالمأمون ويجلس

فى مجالسه ، و ينافس ثمامة بن أشرس بين يديه فى مسائل تتعلق بالعقائد ، و يشتد عليه ثمامة لأنه شاعر ، ولا يعرف غير الشعر ، والمأمون يطلب إليه فى بعض مجالسه أن ينشده أحسن ما قال فى الموت ، فينشده :

أنساك محياك المماتا ‏ ‏ ‏ ‏ فطلبت فى الدنيا الثباتا
أوَثِقتَ بالدنيا وأنـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـت ترى جماعتها شتاتا !
وعزمتَ أنت على الحيا ‏ ‏ ‏ ‏ ةِ وطولها عَزما بتاتا
يا من رأى أبويه فيـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـمن قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عبرة ‏ ‏ ‏ ‏ أم خِلتَ أن لك انفلاتا
ومن الذى طلب التفلـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـت من منيته ففاتا
كل تصبحه المنيـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـة أو تبيته بياتا

وكان المأمون أديباً بطبعه ، له بصر بفنون الشعر ونقده ، وله فى ذلك مجالس معروفة مشهورة ؛ فكان لايدع الشاعر يلقى شعراً حتى يبدى رأيه فيه وفى شعره ، وكان يعقد مناظرات بين الشعراء و يفاضل بين بعضهم و بعض . وكانت هذه المناظرات لا تقل خطراً عن المناظرات التى كان يعقدها بين العلماء عامة، وعلماء الدين خاصة، ولم يسلم أبو العتاهية من نقده المر الصريح ، فإنه دخل عليه مرة وأنشده البيتين :

ما أحسن الدنيا و إقبالها　　إذا أطاع الله من نالها
من لم يواس الناس من فضلها　　عرّض للإدبار إقبالها

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ، فأما الثانى فما صنعت فيه شيئاً ، الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بهـا ، وإنما يوجب السماحة بها الأجر ، والضن بها الوزر ، فقال : صدقت ياأمير المؤمنين أهل الفضل أولى بالفضل ،وأهل النقص أولى بالنقص؛ فقال المأمون: ادفع إليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده:

كم غافلٍ أودى به موته　　لم يأخذ الأهبة للفوت
من لم تزُل نعمته قبله　　زال عن النعمة بالموت

فقـال له : أحسنت الآن طيبت المعنى ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

وكان المأمون يدنيه منه ، ويقربه إليه ، ويأنس به فى وحشته ، ويطمئن إليه فى وحدته ، فقد قال فى بعض حديث له :

وجه إلىّ المأمون يوماً فصرت إليه ، فألفيته مطرقاً متفـكراً مغموماً ، فأحجمت ، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال : يا إسماعيل : شانَ النفسَ المالُ ، وحب الاستطراف ، والأنس بالوحدة ، كما تأنس بالإلف ، قلت : أجل يا أمير المؤمنين ، ولى فى هذا بيت شعر، فقال : وما هو ؟ فقلت :

لا يُصْلح النفسَ إذ كانت مُدَبَّرةً   إلا التنقلُ من حال إلى حال

قال : أحسنت . زدنى ، فقلت : لا أقدر على ذلك، وآنسته بقية يومه ، وأمر لى بمال فانصرفت [1] .

ونسبوا إليه أنه كلما حج قدم إلى المأمون هدية ، فمنحه المأمون هدية خيراً منها ، ولعله كان يفعل ذلك ، مع المأمون ، ومع غيره من الخلفاء ، وقد تقدم ذلك فى بعض الحديث عن المهدى .

وكان المأمون يحفظ من شعره ، ويتمثل به ، ولا سيما الجيد منه ومما كان يتمثل به قوله فى سلم الخاسر — تعالى الله ياسلم بن عمرو . . وقد أنشد المأمون بيت أبى العتاهية يخاطب سلما الخاسر :

تعالى الله ياسلمُ بنَ عمرو   أذلَّ الحرص أعناق الرجال

فقال :

إن الحرص لمفسد للدين والمروءة . والله ما عرفت رجلا قط حريصاً ولا شرهاً فرأيت فيه مصطنعاً ، فبلغ ذلك سلما فقال : ويلى على المخنث الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها، وعبأ البدور فى بيته ، ثم تزهد مراءاة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بى إذا تصديت للطلب .

---

(١) مروج الذهب ج ٣

ولا نشك بعد الذى قدمناه أن أبا العتاهية حصل من المأمون مالا، كما حَصَّل من الخلفاء قبله، إلا أنه مات فى عهد خلافته، بعد أن صاحبه بضعة عشر عاماً.

شعره

١ — قال مصعب بن عبد الله : أبو العتاهية أشعر الناس فقيل له : بأى شىء استحق ذلك عندك ؟ فقال : بقوله :

تعـلقت بآمال ... طوالٍ أىّ آمال
وأقبلت على الدنيا ... ملحاً أى إقبـال
أيا هذا اتجهز لـ ... ـفراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت ... على حال من الحال

ثم قال : هذا كلام سهل حق ، لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل و يقر به الجاهل .

٢ — حدث موسى بن صالح الشَّهْرَزُورِىّ[١] — قال : أتيت سلما الخاسر فقلت له : أنشدنى لنفسك ، قال : لا ، ولكن أنشدك لأشعر الجن والإنس ، لأبى العتاهية ، ثم أنشدنى قوله :

سَكَنٌ يبقى له سَكَن ... ما بهذا يُؤْذِن الزمن
نحن فى دار يخبِّرنا ... بِبِلاها ناطق لَسِن
دار سَوْء لم يدم فرح ... لامرئٍ فيها ولا حَزَن

(١) نسبة إلى شهرزور ، وهى كورة واسعة فى الجبال بين أربل وهمذان .

في سبيل الله أنفسُنا　　كلُّنا بالموت مرتهن

كل نفس عند ميتتها　　حظها من مالها الكفن

إنّ مالَ المرء ليس له　　منه إلا ذكره الحسن

٣ — حدّث يحيي بن زياد الفراء قال : دخلت على جعفر بن يحيي فقال لى : ما تقول فيما أقول ؟

فقلت : وما تقول أصلحك الله ؟ قال : أزعم أن أبا العتاهية أشعر أهل هذا العصر .

فقلت : هو والله أشعرهم عندى .

٤ — حدث محمد بن الأعاطى قال : قلت لداود بن زيد ابن رَزين الشاعر : منْ أشعر أهل زمانه ؟ قال : أبو نواس ، قلت : فما تقول فى أبى العتاهية ؟ فقال : أبو العتاهية أشعر الإنس والجن .

٥ — قال عبد الله بن عبد العزيز العُمَرِىّ : أشعر الناس أبو العتاهية حيث يقول :

ماضرّ من جعل التراب مهاده　　ألا ينام على الحرير إذا قَنِعْ

صدق والله وأحسن .

٦ — حدّث هرون بن سعد قال : حضرت أبا نواس فى مجلس وأنشد شعراً ، فقال له من حضر فى المجلس : أنت أشعر الناس ، قال : أمّا والشيخ حَىٌّ فلا (يعنى بالشيخ أبا العتاهية) .

٧ — حدَّث محمد بن النضر كاتب غَسَّان بن عبد الله قال : أخرِجْتُ رسولا إلى عبد الله بن طاهر فنزلت على العَتَّابى ، وكان لى صديقاً فقال : أنشدنى لشاعر العراق — يعنى أبا نواس ، وكان قد مات — فأنشدته ما كنت أحفظ من ملحه ، وقلت له : ظننتك تقول هـذا لأبى العتاهية ؟ فقال : لو أردت أبا العتاهية لقلت لك أنشدنى لأشعر الناس ، ولم أَقتصر على العراق .

٨ — حدَّث مسعود بن بشر المازنى قال : لقيت ابن مُناذِر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الإسلام ؟ فقال : أترى من إذا شئت هَزَل ، وإذا شئت جَدّ ؟ قلت : من ؟ قال : مثل جرير يقول فى النسيب :

إن الذين غـدوا بلبك غادروا　　وشَلاً بعينك ما يزال معينا
غَيَّضْن من عبراتهن وقلن لى :　　ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟

ثم قال حين جدَّ :

إن الذى حـرم المـكارم تغلبـا　　جعل الخـلافة والنبوة فينـا
مضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لـكم　　يا آل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشقَ خليفة　　لو شئت ساقـكمُ إلىّ قطينـا

ومن المحدثين هذا الخبيث الذى يتناول شعره من كمه ، فقلت : من ؟ قال : أبو العتاهية . قلت : فى ما ذا ؟ قال قوله :

الله بينى و بين مولاتى　　أبدت لىَ الصـد والملالات

لاتغفرُ الذنب إن أسأتُ ولا ... تقبلُ عـذرى ولا مواتاتى
منحتهـا مهجتى وخالصتى ... فـكان هجرانها مكافاتى
أقلقـنى حبهـا وصيَّرنى ... أحـدوثة فى جميـع جاراتى

ثم قال حين جد :

وَمَهْمَـهٍ قـد قطعت طامسه ... قفر على الهول والمحاماة (١)
بحُرَّةٍ جَسْرَةٍ عُـذافِرة ... خَوْصاء عَيْرانةٍ عَلَنْداة (٢)
تبـادر الشمسَ كلما طلعت ... بالسير تبغى بذاك مَرْضاتى
ياناق خُبّى بنـا ولا تعـدى ... نفسك مما ترين راحـاتِ
حتى تنـاخِى بنا إلى مَلِك ... تَوَّجـه الله بالمهـابات
عليه تاجان فوق مفرقه ... تاج جَلال وتاج إخْبات (٣)
يقـول للريح كلما عصفت : ... هل لك ياريح فى مباراتى ؟
مَن مثلُ مَن عَمُّه الرسولُ ومَن ... أخواله أكرم الخؤولات

٩ — حدَّث السرى بن الصباح قال : كنت عند بشار، فقلت له : من أشعر أهل زماننا ؟ فقال : مُخنث أهل بغداد (يعنى أبا العتاهية)

١٠ — حدَّث جعفر بن جميل قال : قـدم العَتَّابى الشاعر على المأمون ، فأنزله على إسحـاق بن إبراهيم ، فأنزله على كاتبـه ثَوَابة

(١) مهمه : مفازة بعيدة — طامسه : بعيده (٢) حرة : ناقة كريمة — جسرة — عظيمة — عذافرة : شديدة — خوصاء : ضيقة العينين غائرتهما — عيرانة : تشبه العير فى سرعته — علنداة : ضخمة طويلة (٣) إخبات : خضوع

ابن يونس ، وكنا نختلف إليه نكتب عنه ، فجرى ذات يوم ذكر الشعراء فقال : لكم يا أهل العراق شاعر مُنوَّه الكُنْية ، ما فعل ؟ فذكر القوم أبا نواس ، فانتهرهم وَنَفَضَ يده وقال : ليس ذلك ، حتى طال الكلام ، فقلت : لعلك تريد أبا العتاهية ، فقال : نعم ، ذاك أشعر الأولين والآخرين في وقته .

* * *

من هذا يتبين أن أبا العتاهية عند بعضهم أشعر الناس في عصره وعند آخرين أشعر الناس جميعا ، وعند غير هؤلاء وأولئك أشعر الجن والإنس . ولكلٍّ سَبَبٌ وعلة . ونحن لا نجرى معهم في هذا المجرى ، لأننا لم نر كلمة أرخص قيمة ، ولا كلمة أكثر ذكرا ، وأشيع ترديداً من قولهم : فلان أشعر الناس ؛ فلا نكاد نستوعب ترجمة شاعر من الشعراء المبرِّزين أو المغمورين ، حتى نجد من يتفضل عليه ، بأنه أشعر الناس . فهى كلمة اتسعت حتى وسعت أكثر الشعراء ، ولانت حتى تشكلت بأشكال مختلفة، وتلونت حتى خلعت على جمهرتهم اللون الذى يتفق مع مذهبه ، ومن لم يستطع أن ينضوى أو يُضْوَى تحت لوائها ، استطاع أن يجلس في ظلها،فيقال له: لولا أنه قال كذا،لكان من أشعر الناس، ولو أنه وضع كذا في موضع كذا لكان أشعر الناس، وهكذا .

والحق أن للذوق دخلا كبيراً في تقدير المعاني ، وفي وضع كل

معنى فى الموضع الذى يستأهله، والناس تختلف أذواقهم و يختلف مقدار استساغتهم لهذا المعنى أو ذاك ، ولعل معنى يستسيغه هـذا و يستملحه يستبرده غيره و يستهجنه ؛ ومثل الأدباء فى ذلك مثل من يذهبون إلى البزاز ليشتروا لهم ثيابا ، فهذا تقع عينه على ذاك اللون ، فيقع من نفسه موقعا حسنا ، و يشعر بهوى فى نفسه ؛ وذلك يستقبحه و ينفر منـه ذوقه ، فى حين أنه يطمئن إلى لون آخر قد لا يطمئن إليه صاحبه ؛ فالمعانى تختلف فى جودتها اختلاف الثياب ، ثم إنها تـكون مقبولة فى النفس أو غير مقبولة ، والألفاظ للمعانى كالألوان للثيـاب . فقد يستهو يك لون جميل جذاب لنسيج غير جيد ، وقد تنفر من لون فى ثوب جيد النسج متين الخيط ، وكذلك أنت أمام الأسلوب الجميل أحيانا ، فقد تهتز له نفسك طربا حينما تقرؤه أو تسمعه ، ولـكنك إذا وقفت عنده واتأدت قليلا تبدد إعجابك منه ، وقد يصبح ولا أثر له ؛ وكذلك أنت أيضا أمام الأسلوب غير الجميل أحيانا ، تنفر منه وتستبرده ، فإذا صبرت عليه نفسك ، وأخذتهـا بالوقوف عنده والتأمل فيه — تـكشفت لك منه أشـياء لا تظهر مع العجلة فيتغير رأيك .

ومثل الشعر مثل ألوان الطعام ، هذا يشتهى ذلك اللون ويحبه ويتمنى أن لو ملأ منه وعاء بطنه كلما خلا ، وذلك يبغض اللون نفسه ،

ويكره أن ينظر إليه ، فضلا عن أن يأكله ؛ ولذلك نرى الباحثين يختلفون ، فيقول أحدهم : فلان الشاعر أشعر الناس ، ويسمع هو نفسه شعر شاعر آخر فيرى أن صاحب هذا أشعر الناس ، وهكذا .

بعد هذا نستطيع أن ندرك السبب فى أن هؤلاء المتقدمين رأى كل منهم رأيه فى أبى العتاهيــة فهو أحياناً أشعر الناس فى عصره ، وأحياناً أشعر الناس جميعاً ، وأحياناً أشعر الإنس والجن ، وهذا كله كلام لا يثبت على محك النقد ، ولا نستطيع أن نعوّل عليه فى قليل ولا كثير، و إنما العمدة فى ذلك الدراسة الفاحصة المجردة من الهوى ، وعرض الشعر تحت منظار الناقدين ، وتكون النتيجة بعد ذلك ما تكون .

و إن الفنون التى تناولها أبو العتاهية محدودة ، مع أنه وصف بأنه من أطبع الناس على الشعر ، لا يشترك معه فى ذلك إلا ابشار والسيد الحميرى ، ووصفوه بأنه كان « غزير البحر لطيف المعانى ، سهل الألفاظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلف ، إلا أنه كان كثير الساقط المرذول مع ذلك » ولم يتناول من فنون الشعر إلا الغزل ، وقد تحدثنا عنه فى غزله مع عتبة ؛ والزهد ، وقد تحدثنا عنه فى زهده ؛ والمدح ، وقد تحدثنا عن شىء منه عند الحديث عن صلته بالخلفاء وغيرهم .

والمتتبع لشعر أبى العتاهية المجموع فى ديوانه يجد كلاما سهلا ،

يجرى على لسان صاحبه جريانا ، وينحدر من فيه انحداراً ، فلا أثر فيه للصنعة أو التكلف ، ولا دليل على أنه كان يحتفل له قبل أن يقوله ، وشاعر هذا شأنه مهما يكن تمكنه من الأدب واللغة فإنه إذا علا حيناً ، سفل أحيانا ، ولا يكاد يجيد حتى يسف . ويخيل إلينا أنه كان لا يَصْبر نفسَه على القريض ولا يحملها على التريث ، ولا يعود إلى شعره بالتهذيب والتنقيح كما كان يفعل ذلك شعراء عصره ، والشعراء الذين جاءوا من بعده إلى اليوم ، بل إن الشعراء الذين كانوا عرباً فصحاء بالفطرة فإن هؤلاء وغيرهم من مجيدى الشعراء السابقين كانوا يتأنَّون ويراجعون أنفسهم ، وقد يستشيرون الأدباء من أصدقائهم ، ويعرضون عليهم ما نظموه ليروا رأيهم فيه قبل أن يعلنوه للناس ، وقد يتركونه بعض الوقت ثم يعودون إليه فيرون غير رأيهم الأول ، ويغيرون ويبدلون ، ويقدمون ويؤخرون ، ويحذفون ويثبتون ، فيخرج كلامهم جديداً ، أو يكاد يكون جديداً ، ولا صلة بينه وبين القديم إلا الموضوع وبعض المعانى وبعض الأبيات ، والميزان الشعرى ويكون الرأى الثانى خيراً من الأول .

وأبو العتاهية كان لا يفعل هذا ولا شيئاً منه ، وإنما هو رجل شاعر مطبوع ، يستطيع أن يجعل كلامه كله موزوناً بموازين الشعر فيما جل أو حقر ، وفيما عظم أو تفه ، لهذا يأتى بعض هذا الكلام له

من الشعر ميزانه ، وإن لم يكن له معناه وخياله وجزالته وتأثيره ، وقد لا يكون له من الشعر ميزانه أيضاً لأنه لا يتقيد بالعروض ، ولأنه يرى نفسه أكبر من العروض ، فهو يذهب إلى عبد الله بن الحسن وهو فى الديوان ، ويجلس إليه فيقول له عبد الله : يا أبا إسحاق : أما يصعب عليك شىء من الألفاظ فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائر مَنْ يقول الشعر، أو إلى ألفاظ مستكرهة ؟ قال : لا ، فيقول له : إنى لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافى السهلة قال : فاعرض علىّ ما شئت من القوافى الصعبة ، فيقول : قل أبياتاً على مثل البلاغ ، فقال من ساعته :

أىُّ عيش يكون أبلغَ من عيـ ... ـشٍ كَفافٍ قُوتٍ بقدر البلاغ
صاحب البغى ليس يسلم منه ... وعلى نفسه بغى كل باغى
رُبَّ ذى نعمة تَعرّض منها ... حائل بينه وبين المساغ
أبْلَغَ الدهرُ فى مواعظه بل ... زاد فيهن لى على الإبلاغ
غَبَنَتْنِى الأيام عقلى ومالى ... وشبابى وصحتى وفراغى

وهذا كلام ، كما قدمنا ، له من الشعر وزنه ، وليس له معناه وخياله وجزالته ، ولكنه يأتى أحياناً بما نعتبره فى باب الشعر ، ونجعله فى صف أبى نواس وبشار وسلم وغيرهم ، كالقطعة التى سبقت :

ومهمهٍ قد قطعت طامسهُ ... قفر على الهول والمحاماة

وقد عرف ذلك منه المتقدمون ، فذكروا أنه كان يأتى أحياناً بالضعيف البارد ، وأحياناً بالساقط المرذول ، وقد قال الأصمعى : شعر أبى العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى[1] . وهذا تصوير صادق لشعر أبى العتاهية ، ولم يعجب شعرُه ابنَ الأعرابى وهو رجل خبير بالنقد ، وقال الحرمازى : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ، وكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جواباً عند البديهة . وكان أبو نواس أسرعهما فى قول الشعر ، فإذا تعاطيا جميعاً السرعة فضله أبو العتاهية ، وإذا توقفا وتمهّلا فضله أبو نواس .

وقد يعارض هذا ما كان لأبى العتاهية من منزلة فى عصره عند الخلفاء والأمراء والوزراء والشعراء فإنه لم يكسب هذه المنزلة بشعره وحده ، ولكنه كسبها بأمور كثيرة ، يرجع بعضها إلى شخصيته وإباقته ، وعذب حديثه ، ولطيف مسامرته ، وحلاوة نكتته ، وملابسات حياته الخاصة والعامة ، والتناقض بين قوله وفعله ، مما وجه نظر الناس إليه ، وغير ذلك من الأمور التى نستطيع أن نلمسها فى شعره ، وأن نستنبطها من الأحاديث التى تحدثت بها كتب الأدب عنه ، حتى لقد كان الخلفاء يجيزونه أحياناً دون غيره من الشعراء ، وإن كانوا أجود منه شعراً ، وأقوى خيالا ، وأبرع مذهباً ، وأوضح قصداً .

---

(١) مقدمة ديوان أبى نواس .

وأما أن أبا العتاهية يذكر عن نفسه أنه ما أراد الشعر قط إلا مثل له، فيقول ما يريد، ويترك مالا يريد — فذلك صحيح فى شطره الأول، وفى أنه ما أراده إلا مثّلَ له، وأكبر ظننا أنه غير صحيح فى شطره الثانى، فهو لم يرد أن يترك مما قال شيئا متى مثل له الشيطان ولكن الزمن هو الذى عَفَّى عليه وتركه، فنسيه الناس، فلم يدوّن منه إلا ما وصل إلينا وأكثره فى ديوانه .

وكان أبو العتاهية يرى كل كلام موزون شعراً، لأن شعره من هذا البحر، فكل من يذهب مذهبه شاعر فى رأيه، بل كل إنسان شاعر، وإن كان لا يدرى، لأنه قد ينطق ببعض الكلام موزونا من غير قصد ولا تعمل، ويروون عنه أنه قال : أكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون، ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم، ومن شعره الذى تخلف فيه عن الركب قوله :

أيا ذوى الوَخامة   أكثرتم الملامة
فليس لى على ذا   صبر ولا قلامة
نعم عَشقت موقاً   هل قامت القيامة
لأركبنّ فيمن   هَوِيته الصرامة

وقوله فى رثاء سعيد بن وهب :

مات والله سعيد بن وهب   رحم الله سعيد بن وهب

يا أبا عثمان أبكيت عيني يا أبا عثمان أوجعت قلبي

وقوله يهجو قاضيا وهو على غير الأوزان العروضية المعروفة عند المتقدمين :

هَمُّ القاضي بيت يُطْرِب قال القاضي لما عوتب
مافي الدنيا إلا مذنب هذا عُذر القاضي واقلب

ويريد بالشطر الأخير أنه لو صحفت لفظة « عُذر » تصير « غَدْر » وهذا الوزن « فَعْـل » لم تنظم العرب منه ، ولم يذكره الخليل ، ولكنه عرفه المحدثون وسموه « دق الناقوس » .

***

ولأبي العتاهية هجاء ، وقلما تجد شاعراً وليس له باع في الهجاء ، لأن من طبيعة الحياة أن يكون لكل إنسان أعداء ، يبغضهم بغضا قليلا أو كثيراً ، ويجرى لسانه فيهم قاسيا أو رفيقا ، وغير الشعراء يخرجون ذلك مخرج الحديث العادى ، يحدثون به أصدقاءهم ومجالسيهم والشعراء ينظمونه شعراً ، يرويه الرواة ، وتتداوله الألسنة ، ويسميه الناس هجاء .

وأبو العتاهية شاعر من الشعراء : صادَقَ وصافَى فمَدَحَ ، وكره وعادى فهجا ، وطُعن في نسبه فهجا ، وغاضب الشعراء فهجوه وهجاهم وكان له وهو في الكوفة جولات في هذا الباب ، فإنه عرف سعدى

مولاة عبد الله بن زائدة ، وشغف بها، كما قدّمنا ، ولكن ذلك يغضب عبدالله و يثيره عليه، و يجعله يتهدده و يخوفه ، و ينهاه عن التعرض لها ، فيرى أبو العتاهية ذلك تعرضا له ، وحدًّا من حريته ، ونهيا عمالا انتهاء له عنه ، فيهجو عبد الله و يقذع فى هجائه ، و يرميه بأشنع ما ترمى به النساء ، فيغضب لكرامته ، و يجن جنونه ، و يدعو بغلمان له ، و يأتى لهم بأبى العتاهية ، و يمتهنونه أحقر امتهان وأشنعه وأبشعه ؛ ثم تستمر الملحمة بينه و بين بعض أبناء معن زمانا ، يرميهم بالجبن والتخنث والفحش ، و يسير شعره ، و يحفظه الناس ، و يتمثلون به و يعيرونهم ، فيخزون منه ، فلم يجدوا بدا من إسكاته ، فتوعدوه ، فعنف عليهم ، فضربوه ، فازداد عنفا ، فتجاوزوا التوعد والضرب فتجاوز العنف والقسوة ، ولولا رغبتنا فى أن نعف عن إذاعة هذا اللون من الأدب لذكرنا طرفا من هذا الهجاء — غير ما قدّمنا فى الفصل الأول — يقفكم على مقدار إيجاع أبى العتاهية أبناء معن وهم شرفاء ، لهذا لم يجدوا بداً من عقد هدنة بينهم و بينه ، ولجأوا إلى من لا يستطيع أبو العتاهية أن يخرج عليهم ، وشكوه إليهم فى رفق، وطلبوا منهم العون عليه ، فسمع لهم وأمسك لسانه عنهم ، وغسل ما ألحقه بهم من عار بأبيات جعل نفسه فيها متجنيا عليهم ، مفتاتا على كرامتهم وشرفهم .

و يخيل إلى أن هجاء أبى العتاهية لعبد الله بن معن بن زائدة

لم يكن سببه الأول أنه تعلق بجاريته سعدى ، ولكن كانت بينهما قبل ذلك مناوشات أثارت نفسيهما ، وجعلت كلا منهما يجد على صاحبه بعض الوجد .

فأبو العتاهية يطلب من عبد الله مالا ، وعبد الله يبخل عليه ، ويغل يده عنه ، وأبو العتاهية يحب المال حبا شديداً ، فيغضبه ألا يعطيه عبد الله ، ويشتد غضبه ، ويكتب إليه : أما بعد ، فإني توسلت إليك في طلب نائلك بأسباب الأمل ، وذرائع الحمد ، فرارا من الفقر ، ورجاء للغنى ، وازددت بهما بعداً مما فيه تقربت ، وقربا مما فيه تبعدت ، وقد قسمت اللائمة بيني وبينك ، لأني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي ، أمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم ، ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم . وفي ذلك أقول :

فررت من الفقر الذي هو مدركي ... إلى بخل محظور النوال منوع
فأعقبني الحرمان غب مطامعي ... كذلك من يلقاه غير قنوع
وغير بديع منعُ ذي البخل ماله ... كما بذل أهل الفضل غير بديع
إذا أنت كشفت الرجال وجدتهم ... لأغراضهم من حافظ ومذيع

فلما نزح إلى بغداد ، ذاع صيته ، وعرفه الناس ، فرضي عنه من رضي ، وسخط عليه من سخط ، وكثرت حاجاته إليهم ، فأجابه إليها من أجاب فمدحه ، وامتنع عنه من امتنع فعتب عليه أو هجاه ،

لا يبالى من هجا ، ولذلك كان لا يسلم من لسانه أحيانا الملوك والأمراء والوزراء فهو إذا لم يجبه الخليفة إلى حاجته ، ولم ير منه إلا جفاء ونفورا لا يتردد فى هجاء الملوك فيقول :—

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك فى أكنافهم ظل
ماذا ترجى بقوم إن همُ غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن نصحت لهم ظنوك تخدعهم واستثقلوك كما يُسْتثقل الكَل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما إن الوقوف على أبوابهم ذل

ثم هو لا يبالى أن يهجو أحمد بن أبى دؤاد ، وهو من هو عند المأمون ، وهو القائل بخلق القرآن ومثير هذه الفتنة بين المسلمين ، وحامل الخليفة على أن يذيع هذا المعتقد بين الناس ، ويحملهم عليه كرهاً — رجل هذا شأنه يهجوه أبو العتاهية ، ويعرض بقوله بخلق القرآن ، ويسفه رأيه ، وينسبه إلى الغى والضلال ، ومجانبة الحق والصواب ، ومما قال فيه :

لوكنت فى الرأى منسوباً إلى الرشد وكان عزمك عزماً فيه توفيق
لكان فى الفقه شغل لو قنعت له عن أن تقول كلام الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان فى الفرع لولا الجهل والموق[(1)]

وقد يتبادر إلى الذهن أن أبا العتاهية هجا أحمد بن أبى دؤاد لقوله

(١) الموق : الحمق فى غباوة

بخلق القرآن ، ولإثارته الفتنة بين المسلمين ؛ ولكنه ما هجاه لله ولا للدين ، ولا ذياداً عن رشاد غلب عليه ضلال ابن أبى دؤاد ، وإنما هو رجل طلب من ابن أبى دؤاد مالا فأمسك عنه يده ، ولم يعطف عليه ، رغم أنه رجل جواد معطاء ، فعز ذلك على أبى العتاهية فهجاه ، وذمه بما يذمه به الناس ، ويطعنون عليه به .

وأهاجى أبى العتاهية أكثرها فيمن طلب عطاءهم فلم يعطوه ، أو استمنحهم فلم يمنحوه ، أو استأذن عليهم فحجبوه ، أو صادقهم فتغيروا عليه وجفَوْه ؛ وقلما تجد له هجاء لغير هذا السبب . ومن أهاجيه قوله[1] :

أرى قوماً وجوهُهم حسانٌ … إذا كانت حوائجهم إلينا
وإن كانت حوائجنا إليهم … يقبّح حسن أوجههم علينا
فإن منع الأشحة ما لديهم … فإنا سوف نمنع ما لدينا

وقوله فى عمرو بن مسعدة وكان قد حجب عنه :

مالك قد حلت عن إخائك واســـتبدلت يا عمرو شيمة كدره
إنى إذا الباب تاه حاجبه … لم يك عندى فى هجره نظرة[2]
لستم ترجَّوْن للحساب ولا … يوم تكون السماء منفطرة[3]
لكن لدنيا كالظل بهجتها … سريعة الإنقضاء منشمرة

(١) العقد الفريد ج ١ (٢) إمهال (٣) هو يوم القيامة

قد كان وجهى لديك معرفــة فاليوم أضحى حرفا من النكرة[1]

وقوله — وقد دخل على علىّ بن يقطين وعنــده جماعة من الناس ، فسلم عليه ، فأعرض عنه —[2] :

مالك لا ترجع السلام على الز وار إلا بلمحــــــة البصر
ما أنت إلا من العباد وإن أصبحت فى إمرة وفى خطر
ما أقدر الله أن يغــــــير ما أصبحت فيه فكن على حذر
واعــلم بأن الأيام يلعبن بالنــــــاس وأن الزمان ذو غير

ومن هجائه لأحمد بن يوسف قوله :

فى عداد الموتى وفى ساكنى الدنــ ـيـا أبو جعفــر أخى وخليـــلى
ميّت مات وهــو فى وارف العيـــش مقيما فى ظــل عيش ظليل
لم يمت ميتــة الوفاة ولكن مات عن كل صالح وجميل

ومن أهاجيه قوله :

أراك لا تعرف الجميــل ولا تفرق بين القبيح والحسن
إن الذى يَرْتجى نداك كمن يحلب تيسا من شهوة اللبن

وأهاجيه فى جملتها من نوع شعره السهل الهين الذى لا يحتاج إلى كد الذهن وكدح الخاطر .

* * *

---

(١) ومن العجيب أن نرى فى شعر منسوب لأبى العتاهية هــذا التوجيه مع أنه من شعراء القرن الثانى ، وهذا الشعر موجود فى ديوانه ص ٣٢٦ وفى الروائع ص ٦١٢ (٢) حماسة ابن الشجرى

قد تحدثنا عن مدح أبى العتاهية للخلفاء الذين عاش فى كنفهم واستظل بظلهم ، وامتد بنا الحديث إذ ذاك إلى الكلام عن شعره فى المديح عامة ، وعما رُوى منه ومالم يرو ، ونزيد فى هذا الفصل أنه لم يمدح الخلفاء فحسب ، بل مدح غيرهم ، وأجاد فى مدحهم ، وقد نجد لبعض مقطوعاته الشعرية فى مدح الفضل بن الربيع ، أو عمر ابن العلاء ، أو يزيد بن مزيد الشيبانى ، أو يزيد بن منصور الحميرى من القوة الفنية مالا تجده لكثير من قصائده فى مدح الخلفاء . اقرأ قوله فى مدح عمر بن العلاء [1] ، مولى عمرو بن حريث [2]

يا صاح ، قد عظم البلاء وطالا وازددتُ بعدك صَبْوة وخبالا
حُمِّلت ممن لا أنوه باسمه ثِقْلا كأن به علىّ جبالا
ماذا لقيت من الهوى وسَقامه فيها تبارك ربنا وتعالى
أكثرت فى شعرى عليك من الرقى وضربت فى شعرى لك الأمثالا

---

(١) كثير من الكتب يذكر عمر بن العلاء بأنه عمرو بن العلاء ، وهو خطأ ، اذ هو عمر بن العلاء أحد قواد المهدى ، وكان عامله على طبرستان وكان جواداً شجاعاً ، وقد مدحه أكثر شعراء عصره ومنهم بشار ، ومن قوله فيه :

إذا أرقتك جسام الأمور فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

(٢) عمرو بن حريث مخزومى صحابى ، كان من أشراف العرب فى الجاهلية

فأبيت إلا جفـــوة وتمنعـا	وأبيت إلا صبـــوة وضلالا
إنى أمنت من الزمان وريبه	لما علقت من الأمير حبالا [1]
لو يستطيع الناس من إجلاله	لحذوْا له حُرَّ الوجوه نعـــالا
ما كان هذا الجود حتى كنت يا	عمـرُ ولو يومـا تزول لزالا
إن المطايا تشتكيك لأنهـا	قطعت إليك سباسبـــا ورمالا
فإذا وردن بنـا وردن خفائفا	وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

فهذه المقطوعة من حيث هى مديح ، قطعة فنية رائعة إذا وضعت بجانب نظيراتها من شعر أبى نواس و بشار فى هذا الباب ، رغم أنه فى مجموعه مقصر عنهما ، ألا ترى أن عمر هذا أجازه عليها بسبعين ألف درهم أرسلها إليه مع صاحب ماله ، مستحييا أن يلقاه لصغر العطية ومعتذراً إليه ، وعمر هذا فى بعض الروايات هو الذى رد على الشعراء ، وأفحمهم حين غضبوا لأنه أهملهم وسخا على أبى العتاهية مع أن لهم ببابه أعواما يخدسون آمالهم ، ومع ذلك فإنهم لم يصلوا إلى بعض ما وصل اليه أبو العتاهية — رد عليهم بأن أدخلهم عنده وقال لهم : بلغنى الذى قلتم ، و إن أحدكم ليدور على المعنى فلا يصيبه و يتعاطاه فلا يحسنه ، حتى يشبّب بخمسين بيتا ، فلا يصل إلى المدح

---

(١) الأبيات إلى هنا مذكورة فى سمط اللآلى ص ٥٥١

حتى تذهب حلاوته ، ورائق طلاوته ، وإن أبا العتاهية كأن المعانى تجمع له ، فمدحنى وقصر التشبيب .

ويقولون إن مروان بن أبى حفصة له مع أبى العتاهية موقف مثل هذا ؛ فقد روى أنه رؤى واقفاً بباب الجسر كئيبا ، ينكت بسوط فى معرفة دابته ، فقيل له : يا أبا السمط ، ما الذى نراه بك ؟ قال : أخبركم بالعجب ؛ مدحت أمير المؤمنين ، فوصفت له ناقتى من خطامها إلى خفيها ، ووصفت الفيافى من اليمامة إلى بابه (١) : أرضاً أرضا ، ورملة رملة ، حتى إذا أشفيت على غنى الدهر جاء ابن بياعة الفخاخير ، « يعنى أبا العتاهية » فأنشده بيتين، فضمضع بهما شعرى وسوّاه فى الجائزة بى . ومن مدحه ليزيد بن مزيد الشيبانى (٢) :

وما ذاك إلا أننى واثقٌ بما ... لديْك ، وأنى عالمٌ بوفائكا
كأنكَ فى صدْرى إذا جئتُ زائراً ... تُقَدِّرُ فيه حاجتى بابتِدائكا
وإنَّ أميرَ المؤمنين وغيرَه ... ليَعْلمُ فى الهَيْجاء فَضْلَ غنائكا
كأنكَ عندالكرِّ فى الحرب إنما ... تَفِرُّ من السِّلم الذى من ورائكا
كأن المنايا ليس تجرى لدَى الوَغَى ... إذا الْتقَت الأبطالُ إلا برِائكا
فما آفَةُ الآجال غيرُك فى الوَغى ... وما آفَةُ الأموالِ غيرَ حبائكا

---

(١) بابه : قرية من قرى بخارا . (٢) يزيد بن مزيد كان أميراً على أرمينية ، وكان قائداً شجاعا ، موفقا فى جميع حروبه ، وأخبار شجاعته وكرمه كثيرة ، مات سنة ١٢٥ هـ

وقد مدح يزيدَ هـذا كثير من الشعراء بالشجاعة والكرم ، ومنهمَ مسلم بن الوليد ، ومما قال فيه :

خليفةَ اللهِ ، إنّ النّصرَ مُقتصِرٌ عليك مُذْ أنتَ مَبْلُوٌّ ومُختَبرُ
أعدَدْتَ للحربِ سيفاً من بني مَطَرٍ يَمْضِي بأمْرِكَ مَخْلوعاً له العُذُرُ (١)
لاقَى بنو قَيْصر لما هَمَمْتَ بهم مِثْلَ الذي سوف تَلْقَى مِثْلَه الخَزَرُ (٢)
لقد بَعَثْتَ إلى خاقانَ جائحةً خَرْقاءَ حَصَّاءَ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ (٣)
أظلَّهُمْ منكَ رُعْبٌ واقِفٌ بِهِمُ حتى يُوافقَ فيهم رأيُكَ القَدَرُ
أمْضَى من الموتِ يَعْفُو عند قُدْرتهِ وليس لِلْموتِ عَفْوٌ حين يَقْتَدِرُ

ونستطيع أن نوازن بين القطعتين ، فأبو العتاهيـة يصف يزيد بأنه يعلم حاجته قبل أن يسأله ؛ فكأنه في صدره ، يعلم ما يدور فيه ؛ وإن الناس ، ومنهم أمير المؤمنين ، يعلمون غناءه في الحرب وبلاءه ، وأنه يسعى لهـا ، فهو يكر فراراً من السلم ، ويوزع المنايا على أعدائه كما يرى ؛ وهو آفـة الآجال والأموال ، يفنيهما : الأولى بالموت ، والثانية بالعطاء .

ومسلم يصف يزيد بأن الخليفة أعدّه للحرب سيفاً يمضي بأمره ،

---

(١) العذر : جمع عذار ، وهو جانب اللحية والخد (٢) الخزر : ضيق العين ، ويراد به الفرس . وبنو قيصر : الروم (٣) خاقان : علم ، واسم لكل ملك . جائحة : داهية . خرقاء : تقتل ولا تبالي . حصاء : ساحقة ماحقة .

وأعداءه من روم وفرس يلقون منه نَصَباً فكأنه أرسل إليهم شيئاً شديداً يقضى عليهم ، ولا يترك منهم أحداً ، فهو يُفزِّعهم ، وينشر رعبه فيهم ؛ وهو أمضى من الموت ، ولا فرق بينهما إلا أنه يعفو إذا أراد ، والموت لا يستطيع أن يعفو إذا أراد .

فقطعة أبى العتاهية أقل قوة ومعانى من قطعة مسلم ، وإن كان أبو العتاهية تحدث عن جوده ؛ ولا يضع من قيمة شعر مسلم أنه نسب إلى الخليفة فضل اختيار يزيد .

***

ومما يتصل بمديحه رثاؤه ، فإنه رثى الخلفاء وبكاهم ، ولا بد أن يكون أطال فى رثائهم وأجاد ، لما كان لهم عليه من أياد وأياد ، ورثى غير الخلفاء من رجال الدولة والأصدقاء ؛ فرثى وهو فى الكوفة زائدة بن معن الذى لم يُعن عليه أخويه : عبد الله ويزيد حينما اشتد الخلاف بينه وبينهما كما ذكرنا ؛ ورثى يزيد بن منصور خال المهدى لأنه كان يبره ، ويترفق به ، ويمنعه من المكاره ، ويرد عنه العوادى ؛ ورثى على بن ثابت صديقه وخليله ، وأكثر فى رثائه ؛ ومما قال فيه وهو واقف على قبره بعد أن وورى التراب :

ألا مَنْ لى بأُنسِكَ يا أُخَيَّا ! ومَن لى أنْ أبُثَّكَ ما لَدَيَّا
طَوَتْكَ خطوبُ دهرِكَ بعد نَشرٍ كذاكَ خطوبُه نَشراً وَطَيَّا

فَلَوْ نَشَرَتْ قُواكَ لِيَ المنايا شَكَوْتُ إليك ما صنعَتْ إليّا
بَكَيْتُكَ يا عليّ بدمعِ عيني فما أغنى البكاء عليك شيّا
كَفَى حزناً بدفنِكَ ثم أنّي نَفَضْتُ ترابَ قَبْرِكَ من يَدَيّا
وكانت فى حياتِكَ لى عِظَاتٌ فأنتَ اليومَ أَوْعَظُ منك حَيّا

وكان صديقاً للأصمعى ، يجلس فى مجلسه ، ويأنس له ، و يتبسط فى الحديث معه ، ، فلما مات رثاه بأبيات ، منها[1] :

أسِفْتُ لِفَقْدِ الأصمعيِّ ، لقد مَضَى حَميداً ، له فى كلِّ صالحةٍ سَهْمُ
تَقَضَّتْ بَشاشاتُ المجالسِ بعدَه وَوَدَّعَنا ، إذ وَدَّعَ ، الأُنْسُ والعِلْمُ
وقد كان نَجْمَ العِلْمِ فينا حياتَه فلما انقضَتْ أيامه أَفَلَ النَّجْمُ

و بجانب ماله من المقطوعات البالغة حَدّ الإجادة من الناحية الفنية . فإن له رثاء مضحكا أحياناً ، نشك كل الشك فى أنه صاحبه ، إلا أن يكون قصد به إلى المزح والسخرية ؛ ولكن شاعراً يدعى الزهد مثل أبى العتاهية يبعد أن يمزح فى مثل هذا الموقف الرهيب ؛ ومن ذلك ما رثى به سعيد بن وهب ، وقد ذكرناه ؛ ومنه ما ذُكِر أنه قال فى رثاء خليفة :

(١) لعلهم أرادوا ابن الأصمعى أو غيره ، لأن الكتب التى ترجمت للأصمعى النحوى اللغوى الإخبارى، صاحب النوادر والملح والغرائب — تذكر أنه توفى سنة ٢١٤ هـ أو بعدها ، أى بعد أبى العتاهية ، وهذه الكتب منها : أنساب السمعانى ، وفيات الأعيان جـ ١ ، النزهة .

مات الخليفة أيها الثقلان فكأننى أفطرت فى رمضان[1]

***

ولأبى العتاهية أرجوزة اشتهر بها ضمنها كثيراً من الأمثال والحكم ، ويقولون : إنه ضمنها أربعة آلاف مثل ، فسميت ذات الأمثال ، وقد ذكر صاحب الأغانى شيئاً منها ، لعله هو الذى وصل إليه ، وذكرت أبيات منتثرة فى غير الأغانى من الكتب ، وقد جمع هذه وتلك صاحب الروائع ونحن ذاكروها :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الله حسبى فى جميع أمرى به غنائى وإليه فقرى
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
إن كان لا يغنيك ما يكفيكا فكل ما فى الأرض لا يغنيكا
إن القليل بالقليل يكثر إن الصفاء بالقذى يكدر
هى المقادير فلمنى أو فذر إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ورب جد جره المزاح
يغنيك عن كل قبيح تركه يَرْتَهن الرأىَ الأصيلَ شَكُّه
لكل قلب أمل يقلبه يصدقه طوراً وطوراً يكذبه

(١) المعنى الذى قصد إليه لا بأس به ولكنه أساء فى صوغه وعرضه .

يا رُبَّ من أسخطنا بجهده ... قد سرنا الله بغير حمده
من لم يَصل فارض إذا جفا كا ... لا تقطعن للهوى أخا كا
العنز لا يسمن إلا بالعلف ... لا يسمن العنز بقول ذى لطف(١)
لن تُصْلِح الناسَ وأنت فاسد ... هيهات ما أبعد ما تكابد
لكل ما يؤذى وإن قل ألم ... ما أطولَ الليل على من لم ينم
إن اختفى ما فى الزمان الآتى ... فقس على الماضى من الأوقات
ما تطْلع الشمس ولا تغيبُ ... إلا لأمر شأنه عجيب
لكل شىء معدن وجوهرُ ... وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبر
وكل شىء لاحق بجوهرهْ ... أصغره متصل بأكبره
من لك بالمحض وكلٌّ ممتزج ... وساوس فى الصدر منك تختلج(٢)
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ... ممزوجةَ الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواجُ ... لذا نِتاجٌ ولذا نتاج
من لك بالَمحض وليس محضُ ... يَخْبُثُ بعضٌ ويطيب بعض
لكل إنسان طبيعتان ... خير وشر وهما ضدان
والخير والشر إذا ما عدا ... بينهما بَوْنٌ بعيد جدا
إنك لو تستنشق الشحيحا ... وجدته أنتن شىء ريحا

---

(١) اللطف : الإحسان والإتحاف .
(٢) المحض : الخالص الصريح الذى لم يخالطه غيره .

سكتُّ حتى غمنى السكوت صرت كأنى حائر مبهوت

كذا قضى الله فكيف أصنعُ والصمت إن ضاق الكلام أوسع

الترك للدنيا النجاة منها لم نر أنهى لك منها عنها

من لاح فى عارضه القتيرُ فقد أتاه بالبلى النذير

من جعل النمام عينا هلكا مُبلغك الشرَّ كباغيه لكا

ما كنت لو أكرمت بالمستعصى لا يهرب الكلب من أكل القرص

من لم يكن فى بيته طعام فما له فى بيته مقام

المكر والعتب أداة الغادر والكذب المحض سلاح الفاجر

سامح إذا سمت ولا تخشى الغبَن لم يغل شىء هو موجود الثمن

من عاش لم يخل من المصيبة وقلما ينفك عن عجيبة

يا طالب الدنيا بدنيا الهمة أين طلبت الله كان ثمَّة

يوسِّع الضيقَ الرضا بالضيق وإنما الرشد من التوفيق

أستودع الله أمورى كلَّها إن لم يكن ربى لها فمن لها

ما أبعد الشىء إذا الشىء فقد ما أقرب الشىء إذا الشىء وجد

يعيش حىّ بتراث مَيْت يَعْمُر بيت بخراب بيت

صلح قرين السوء للقرين كمثل صلح اللحم والسكين

لم يصف للمرء صديق يَمْذقه ليس صديق المرء من لا يصدقه(١)

---

(١) يمذقه . مذق الود : شابه بكدر ولم يخلصه.

معروف مَن مَنَّ به خداج — ما طاب عذب شابه أجاج[1]
ما عيش من آفتُه بقاؤه — نَغّص عيشاً طيّبا فناؤه
إنا لَنفنى نفَساً وطرْفا — لن يترك الموت لإلف إلفا
وللكلام باطن وظاهرُ — في ساعة العدل يموت الجائر
إن الشباب والفراغ والجِدَةْ — مفسدة للعقل أى مفسدة
إن الشباب حجة التصابى — روائح الجنة فى الشباب
اصحبْ ذوى الفضل وأهلَ الدينِ — فالمرء منسوب إلى القرين
إياك والغيبة والنميمة — فإنها منزلة ذميمة
لا تذهبنّ فى الأمور فَرَطا — لا تسألن إن سألت شططا[2]
وكن من الناس جميعاً وَسَطا

وإذا أردنا أن نبحث فى هذه الأرجوزة من حيث قيمتها الفنية ، ومن حيث هى شعر ، والشعر إنما يعتمد على الخيال ، كما يقول الباحثون ، ويثير فى النفس شعوراً بالألم أو اللذة ، ينشأ هذا الشعور من صورة يكونها الخيال — إذا أردنا ذلك فإننا لا نجد لهذه الأرجوزة قيمة تجعلنا نعنى بدراستها دراسة فنية ، وإنما هى أبيات منتثرة من الشعر ، منفصل بعضها عن بعض معنى ورويا ، وإن اتحدت بحراً ، وكل بيت من هذه الأبيات ينطوى على معنى قائم بذاته ، وهذا المعنى

(١) الخداج : كل نقصان فى شىء . (٢) الفرط : العجلة .

مستمد من الحياة الواقعة ، يغرى الشاعرُ به ، أو ينفرُ منه ، و إذا كان الإنسان يتأثر بهذه الأبيات ، و يستملحها ، و يستشهد بها ، فى أثناء الحديث ، و يحس أنه يتأثر بها بعض التأثر — فإن ذلك ناشىء من صلتها القوية بظروف الحياة وملابساتها ، أما الناحية الشعرية فإنها ليست إلا متناً نظمهُ صاحبه فى علم الحياة ، وضمنه حقائق هذا العلم على نحو ما نظم أبان كليلة ودمنة ، إلا أن أبان غلبت عليه القصة ؛ وعلى نحو ما نظم بعض النحاة النحو ، ونظم بعض الفقهاء الفقه ، وغير ذلك ، ولكن هناك فرقاً بين علم وعلم ، و بين ناظم وناظم .

***

ولعل أبا العتاهية أول شاعر عربى فلسف الشعر ، وجعله يجرى أحياناً على قواعد أهل المنطق ، إلا أنه كان فيلسوفاً أوليا ، ومنطقياً مبتدئا ؛ فله أحياناً أسباب ومسببات ، وله أدلة ومدلول عليها ، وله مقدمات ينتهى منها إلى نتائج ؛ وله شعر فى النفس وصيرورتها وفنائها .

ومع ذلك فقد لا تجد بين أجزاء القصيدة الواحدة تماسكا وارتباطاً ، سيا قصائده فى الزهد والحكم ، لأن شدة تشاؤمه من الحياة ، و برَمه بها — يجعله ينظر إليها بمنظار أسود ، فلا تراه

إلا مضطربا ، ولا تقع عينك عليه إلا قلقاً مشدوهاً ، حائر الفكر ، مضطرب النفس ، فيجيء كلامه أو شعره حلقات يلفق بينها ، و يضم بعضها إلى بعض ، ولا يجمعها إلا إطار من السواد والبؤس والتشاؤم « فهو يرى أن العالم سلسلة من الألم ، متصلة الحلقات ، والصفاء فيه يمتزج بالأكدار أينما كان ، ولا رجاء فى السعادة إلا لمن حمل بين جنبيه نفسا قنوعة[1] » .

ولعلنا بعد هذا نستطيع أن نعلل من الناحية النفسية أنه كان زاهداً مفرطاً فى الزهد ، وأنه كان بخيلا مفرطاً فى البخل ، مع ما كان عليه من سعة الحال ، ووفرة المال : فهو يحاول أن يجمع المال ما وسعه الجمع ، ثم يحاول أن يحرص عليه ما وسعه الحرص ، ثم يحاول أن يظهر أمام الناس زاهداً حتى لا يعتبوا عليه بخله وحرصه وهذه النواحى المختلفة المتضاربة : غنى ، وبخل ، وزهد ؛ تدور فى ذهنه مضطربة أى اضطراب ، ثم تظهر فى شعره مضطربة أى اضطراب أيضاً .

* * *

أبو العتاهية بعد هذا لم يتكلف اللغة تكلفا ، ولم يستكره ألفاظها استكراها ، كما كان يفعل بعض الشعراء المعاصرين له وغير

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ، العدد السادس .

المعاصرين ؛ ولكنه كان يبغض الفخامة الشعرية أشد البغض ، ويكره الجزالة اللفظية أشد الكره ، وإنما كان يؤثر الكلام السهل السلس الذى لا يكلف النفس عناء وراء فهمه ، ولو كان فيه فلسفة .

وكان فى معانيه أيضاً يؤثر الوضوح ، ويقصد إليه عمداً ، ويكره الغموض والمبالغة .

ومع سهولة أخذه للمعانى ، ومحاولة تيسيرها على أفهام الناس — فإنه كان يأخذ من غيره كثيراً ، ويأخذ منه غيره قليلا ؛ ومن شعره هذا قوله[1] :

أمَا والذى لو شاء لم يَخْلُق النَّوَى
لئن غِبْتَ عن عَيْنى لمَا غِبْتَ عن قلبى
تُرِينيكَ عَيْنُ الذِّكر حتى كأنما
أُناجِيكَ عن قُربٍ وإن لم تكن قُرْبى

وهذا المعنى متسع ، يقول فيه الشعراء كثيراً ، ويجرى على ألسنة العامة فى كل عصر ؛ والذين يُعِدّون للمغنين أغنياتهم يستعذبونه ، ويكثرون القول فيه ، والمغنون يحبون ترديده ، والسامعون يستملحونه ولا يسأمونه . وممن نظموا فى هذا المعنى بشار حيث يقول :

---

(١) الأمالى جـ ٢ وزهر الآداب جـ ١

لَهفِي عليها ولَهفِي من تذَكُّرِها ... يدنو تذكُّرُها منّي وتنْـآنى
إذْ لا يزالُ لها طَيفٌ يؤرِّقُني ... نَشْوان من حُبِّها ، أو غيرَ نَشْوان

والخليل بن أحمد حيث يقول[1] :

إن كنتَ لسْتَ معى فالذِّكْرُ منك معى
يرعاكَ قلبي وإن غُيِّبْتَ عن بَصَرى
العَيْنُ تُبْصر مَن تَهوَى وتَفقِـــدُه
وناظرُ القلبِ لا يخلو من النظر

وأحمد بن محمد بن عبد ربه حيث يقـــول :

وَدِّعْتَ ، فاركب جَناحَ البَيْن فى سَفَرِهْ
هذا الفِراقُ ، وهـذا الموتُ فى أثَرِهْ
من يشتكى البَيْن لا يشكو غَوائِلَهَ
قَلْبٌ يراكَ إذا ما غِبْتَ عن بَصَرِه[2]

ومحمد بن عبد العزيز العتبي حيث يقـــول :

أيا شَمْعَ مِحْرابٍ ، و بَدْرَ دُجُنّة ... وشمسَ غَماماتٍ ودُمْيةَ راهبِ[3]
لئن كنتَ عن عيني وسَمْعي غائبا ... فما أنتَ عن فِكْرى وقَلْبي بغائب

---

(١) وقيل : إن البيتين للحكم بن قنبر .
(٢) الغوائل : الدواهى .
(٣) الدمية : الصورة المنقشة . الدجنة : الظلام .

ومن المعانى المتسعة أيضاً التى أكثر منها الشعراء ، وكررها أبو العتاهية فى شعره المعنى المأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم : يقول ابن آدم : مالى مالى ! و إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، فقد قال أبو العتاهية فى هذا:

المـالُ ما كان قُدَّامى لآخِرَتى   ما لم أُقَدِّمْهُ قُدَّامى فليس لِيَهْ

وقال أيضاً :

ألا إنما مالى الّذى أنا مُنفِقُ   وليس لِىَ المـالُ الّذى أنا تارِكُهْ
وكائِنْ رأينا جامعاً غيرَ مُنْفِق   ثَوَى ها لِكاً لم تُغْنِ عنه ترائِكُهْ (١)

وهذا المعنى تداوله الشعراء قبل أبى العتاهية و بعده ومن ذلك قول حاتم (٢) :

أَعاذِلُ إِنْ يُصْبِحْ صَداىَ بِقَفْرَةٍ   بعيداً نآنى صاحبى وقريبى (٣)
تَرَىْ أنَّ ما أبْقَيْتُ لم أكُ رَبَّهُ   وأنَّ الذى أفْنَيْتُ كان نصيبى
وذى إبِلٍ يَسْقِى ، ويَحْسَبُها له   أخى نَصَبٍ فى رَعْيِها وَدءُوب
غَدَتْ وغدا رَبٌّ سواه يَقُودُها   و بُدِّلَ أحْجاراً ، وجَالَ قَلِيب (٤)

---

(١) ترائك : جمع تريكة كسفينة ، وهى المرأة تترك ولا تزوج ، والروضة يغفل عن رعيها ، والماء يتركه السيل ، والمراد لم يغن عنه المال الذى يتركه .
(٢) البيتان الأولان منسوبان فى خزانة الأدب ج ١ للنمر بن تولب .
(٣) الصدى : جسد الآدمى بعد موته .
(٤) الجال والجول : جانبا القبر والبئر . والقليب : البئر .

ومن نظم فيه أيضاً من الجاهليين — الحارث بن حلزه اليشكرى(١) ، ونويفع الفقعسى(٢)

ومن الإسلاميين الذين نظموا فيه بعد أبى العتاهية — أبوالحسن التهامى ، قال فى قصيدته المشهورة التى رثا بها ابنه :

ما زادَ فوق الزادِ خُلِّفَ ضائعا فى حادث أو وارث أو عار

***

ومن هذه المعانى قوله :

وقد يهلك الإنسان من وَجْه أمْنه ويَنْجُو بحمْدِ اللهِ من حيث يُحْذَرُ(٣)

فقد قال فيه بشار :

ليس كلُّ النعيم يُبْقى سروراً رُبَّ همٍ يَدِبُّ تحت السرور(٤)

وقال ابن أبى زرعة :

لا يُؤْيِسَنَّك أن ترانى ضاحكا كم ضحكةٍ فيها عُبُوسٌ كامِنُ(٥)

وقال سعيد بن حميد :

كم فَرْحَةٍ مَطْويّةٍ لك بين أثناء النوائب(٦)

ومَسَرّةٍ قد أقبلت من حيث تنتظر المصائب

---

(١) ديوان الحارث والمفضليات (٢) لسان العرب ، مادة مرط

(٣) الكامل للمبرد، خزانة الأدب جـ ٣ (٤) المختار من شعر بشار للخالدين

(٥) نهاية الأدب جـ ٣ (٦) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

وقال ابن المعتز :

رُبَّ أمْرٍ تتقيه   جَرَّ أمراً ترتجيه
خَفِيَ المحبوبُ منه   وبدا المكروهُ فيه

* * *

ومن هذه المعانى أيضاً قوله :

فى كلِّ أرض ترى من مَنْطقى أثَرا   بَين المشاهدِ أو يَبْكى به وَتَرُ
ما ذرَّت الشمسُ إلا جاء يَقْدمها   وفى المغارب منه خَلْفَها أثَر

فقد قال فيه بشار[1] :

ومِثلك قد سيَّرتُه بقصيدةٍ
فسار ولم يَبْرح عِراصَ المنازلِ[2]
رمَيْت به شرقا وغربا فأصبحت
به الأرضُ مَلْأى من مُقيم وراحل

وقال أبو تمام :

وسَيّارةٍ فى الأرض ليس بنازح
على وفدها حَزْنٌ سحيق ولا سُهْبُ[3]

---

(١) المقصود البيت الثانى
(٢) العراص : جمع عرصة ، وهى كل بقعة واسعة بين الدور ليس فيها بناء
(٣) السهب : الأرض المستوية السهلة ، فهو ضد الحزن

تَذُرُّ ذُرورَ الشمس فى كل بـلدة
وتمضى نفوذاً ما يُرَدّ لهـا غَرْب (١)
عَذارَى قوافٍ كنتُ غير مُدافَع
أبا عُذرها لا ظُلْمُ ذاك ولا غَصْب
إذا أُنشِـدت فى القوم مرت كأنهـا
مُصِرَّةُ كِبْرٍ أو تداخلهـا عُجْب
مُفَصَّـلةٌ باللؤلؤ المنتـقى لهـا
من الشعر إلا أنه لؤلؤ رَطْب

وقال على بن الجهم :

ولكنّ إحسانَ الخليفـةِ جعفرٍ دعانى إلى ما قلتُ فيه من الشعر
فسارَ مَسيرَ الشمسِ فى كل بَلْدةٍ وهَبَّ هُبوبَ الريح فى البرّ والبحر

***

وإن لأبى العتاهية أبياتا سارت فى الناس وحفظوها ، وتمثلوا بها فى المجالس ، دارت مع الزمان ، ولا يعرف الناس أهى لأبى العتاهية أم لغيره ، فإن سيرورتها أنست اسم صاحبهـا ، ومن ذلك قوله :

وإن نحن لم نبغ معروفـه فمعروفه أبداً يبتغينـــا.

(١) الغرب : الحدة والنشاط والتمادى . وذرت الشمس : طلعت

وقوله .

وما تصنع بالسيف … إذا لم تكُ قتّالا !

وقوله :

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرٍو … أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرجال

وقوله :

ولربما استيأستُ ثم أقول لا … إن الذى ضَمِنَ النجاحَ كريم

وقوله :

رُبّ وُدٍّ بعد صَدٍّ … وهَوًى بعد تقالى

وقوله فى الأسف والحسرة على إساءة بدرت منه :

إنما كانت يمينى … لَطمتْ منى شمالى

وقوله :

إنما تنظر العيونُ من النا … س إلى مَن ترجوه أو تخشاه

وقوله :

كلُّ حيٍّ مُمَلَّك … سوف يفنى وما ملك

وقوله :

وكانت فى حياتك لى عِظاتٌ … فأنت اليومَ أوعظُ منك حيا

وقوله :

ما انتفع المرء بمثل عقله … وخيرُ ذُخْرِ المرء حسن فِعْله

وقوله

إن الشباب والفراغ والجِدَه   مَفْسَدة للمرء أيُّ مفسدة

وقوله :

ألا ليت الشبابَ يعود يوماً   فأخبرَه بما فعل المشيب

وقوله :

تَرجو النجاةَ ولم تسلُكْ مسالِكَها
إن السفينةَ لا تَجرى على اليَبَس

وقوله :

لا يصلح النفسَ إذ كانت مُدَبِّرَةً   إلا التنقُّلُ من حال إلى حال

وقوله :

إن الشباب حُجَّة التصابى   روائح الجنة فى الشباب

وقد قال الجاحظ حينما سمع قوله : روائح الجنة فى الشباب — إن له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل ، وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

تصحيح بعض الأخطاء المطبعية التى وقعت أثناء الطبع

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٨	اختلاف	باختلاف
١٨	١٦	ابن المنصور	ابن أخى المنصور
٢٧	٩	لأن	مع أن
٣٥	١١	الغزل	الهزل
٦٢	٧	موهوب	مرهوب
٩٩	٢	الثانوية	الثنوية
١٠٣	١٤	شفى	سقى
١٠٩	٢	عذاقرة	عذافرة
١١١	١٠	مرقوما	مرموقا
١١٢	٨	صلاة	صلات
١٣٣	٦	قصيدة	قعيدة
١٢٤	١٢	غزالون	غزلون
١٤٤	٧	بشأنه	بشانه
١٦٠	٦	اتجهز	تَجَهَّزَ

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
عقيدته	٥
زهد أبي العتاهية وزهد أبي نواس	٣٤
بخله وشحه	٦٢
غزله	٧٦
أبو العتاهية والخلفاء	١٠١
أبو العتاهية والمهدى	١٠١
أبو العتاهية والرشيد	١٢٠
أبو العتاهية والمأمون	١٤٨
شعره	١٦٠

كتب اللجنة

أصدرت اللجنة فى هذه الفترة — عدا الكتب المدرسية — الكتب الآتية :

١ — يسألونك : للأستاذ عباس محمود العقاد .
٢ — أثر الشرق فى الغرب : للدكتور فؤاد حسانين .
٣ — قصة الكهربا واللاسلكى : للأستاذ محمد عاطف البرقوقى
٤ — مشكلاتنا الاجتماعية : للأستاذ محمد عطية الإبراشى .
٥ — الحبشة : للأستاذ حسن محمد جوهر .
٦ — الغزل عند العرب : للأستاذ حسان أبو رحاب .
٧ — عائشة أم المؤمنين للآنسة زاهية مصطفى قدورة .
٨ — الفلسفة القرآنية : للأستاذ عباس محمود العقاد .
٩ — أحاديث الصباح — فى المذياع — للشيخ محمود شلتوت ، محمد محمد المدنى .
١٠ — أبطال الشرق : للأستاذ محمد عطية الإبراشى .
١١ — المهد الذهبى : للأستاذين وهبى اسماعيل حقى ، إبراهيم خير الله .
١٢ — الراهبة المتوحشة : للدكتور عباس إبراهيم حسن .
١٣ — صرخة فى واد : للأستاذ محمود غنيم .
١٤ — ولادة : مسرحية شعرية : للأستاذ على عبد العظيم :

وتباع الكتب السبعة الأولى بمكتبة عيسى البابى الحلبى بجوار سيدنا الحسين بالقاهرة .

Bibliotheca Alexandrina
0402918